سلوى بكر

عجين الفلاحة



قصص

عجين الفلاحة

الكتاب : عجين الفلاحة
(قصص قصيرة)
الكاتبة : سلوى بكر
الطبعة : الأولى ١٩٩٢

الناشر : سينا للنشر
المدير المسؤول : راوية عبد العظيم

---

١٨ شارع ضريح سعد - القصر العيني - القاهرة
جمهورية مصر العربية - تليفون : ٠٢/٣٥٤٧١٧٨.

الصقر العربي للإبداع
قبرص - ليماسول -
69, Gladstono Str.
office 402

مكتب القاهرة : ٢ شارع شريف -
عمارة اللواء - شقة ٧٧ ت : ٣٩٢٤٠٧٤
الوكلاء في الجماهيرية :
الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والاعلان
شارع سناء محيدلي - مصراتة

الغلاف : عماد حليم

الإخراج الداخلي : إيناس حسني

الصف : سينا للنشر

صورة الغلاف : مقطع من لوحة صندوق الدنيا للفنان عبد الهادي الجزار

قصص قصيرة

سلوى بكر

عجين الفلاحة



شال الحمام

نفذت الخطة بإحكام كما رسموا لها تماما . ركب الأول صاحب الندبة الغائرة فى رقبته القصيرة من محطة اقلاع الحافلة بموقف السيارات العمومى ، وبعد أن اجتازت منطقة الحى التجارى المركزى بسرعة سلحفاة ، بسبب زحام السيارات والناس ومصارين السوق المندلقة بضائع وسلعا على أرصفة الشوارع والطرقات ، نط الثانى الى داخل الحافلة بمجرد أن هدأت من سرعتها عند أولى محطات الحى القديم الذى استطالت بناياته فى سباق ماراثونى عبر السماء ، واختفت حدائقه الجميلة التى طالما نعست فى الهدوء حتى زمن قريب ، أما الثالث ذو النظرات القلقة والحركة السريعة المباغتة ، التى يساعده عليها جسده النحيل المشدود ، فقد تشبث بعمود باب الأتوبيس الخلفى لما بدأ التحرك من محطة الحديقة العامة الفاصلة بين ذلك الحى ، ومايليه من أحياء أعلنت عن هويتها إضاءات الطريق المتضائلة أحيانا ، والمنعدمة أكثر الأحيان ، والأرصفة المتكسرة ، ومطبات نهر الشارع المتكررة، التى تستجيب لها أجساد الركاب بالتدافع صعودا وهبوطا ، ويمينا ويسارا ، كلما مرت الحافلة فوقها ، أو حاول سائقها تفاديها ، وما أن استقر الثالث بداخلها ، وتأكد من وجود زميليه : الأول ، الذى صار فى المقدمة ، واقفا خلف السائق ، والثانى القابع فى آخر كرسى بالمؤخرة ، حتى رفع يده معطيا شارة البدء ، ثم دفع بجسده الركاب الواقفين ، وسار

حتى بداية الحافلة ، عندئذ أخرج الأول والثانى مطواتين من النوع الشهير بقرن الغزال، شاهريتها فى قفا السائق والمحصل . أما هو .. الثالث ، فقد أخرج بحركة سريعة ، مدروسة ، مسدسه ، وسدده الى الجالسين والواقفين قائلا :

– كلكم ايديكم لفوق ... ممنوع أى واحد يتحرك .

بين الذهول وعدم التصديق ، تردد الراكبون لحظات قبل أن يرفعوا أيديهم لأعلى ، الحركة نفسها قام بها المحصل رغم السيجارة البلمونت المشتعلة بين سبابته وابهامه ، والتى كان بائع نفتالين البلى ، صديقه قد أعطاها له ، قبل أن ينادى على بضاعته وينط من الحافلة . السائق كان الشخص الوحيد الذى لم تتحرك يداه لأعلى ، بل واصلت الإمساك بعجلة القيادة ، بناء على تعليمات الزعيم حامل المسدس ، غير أنه بطّأ من سرعة السيارة كثيرا بناء على هذه التعليمات أيضا ، لكن ذلك لم يمنعه من التفكير مغموما ، فى أن عملية السطو التى بدأت منذ قليل ، ستعطله ولابد من العودة سريعا الى بيته ، ورمي جسمه كزكيبة ملح على السرير ، لينام كما يشتهى ، ويريح نفسه من وجع وتعب طيلة اليوم ، ثم أنه فكر أيضا فى أن ركاب الحافلة سوف يطلبون منه تغيير مسارها ، والتوجه الى أقرب قسم شرطة لتحرير محضر بالواقعة بعد فرار الحرامية ، فزفر بغيظ ، ووجد سببا جديداً ، يضيفه الى أسبابه العديدة الأخرى ، ليلعن اليوم الأسود الذى عين فيه سائقا بهيئة النقل العام ، التى كان عملاؤها حينئذ داخل الحافلة ، يبلغ عددهم خمسة وثلاثين شخصاً ، غط ستة منهم على الأقل فى نوم عميق ، بعد محطتين أو ثلاثة من تحركها ، إذ أنهم على الأغلب ، كانوا من أولئك القاطنين فى الحى الذى ينتهى عنده مسار الحافلة ، لذلك فإن هؤلاء النائمين لم يشعروا بما دار حولهم ، وتخففوا لبضع دقائق من مشقة رفع أيديهم ، حتى صاح فيهم حامل المسدس صيحة أخرى أفزعتهم ، ففزوا

لها ورفعوا أيديهم بمجرد أن رأوا المسدس ، وأصبحوا كباقى الركاب، حتى أن الولد الصغير الوحيد بين الجميع والقابع فى حجر أمه ظن أن كل الناس يتشاركون فى لعبة شال الحمام ، فابتسم ورفع يديه هو الآخر بحماس ، ولما طال انتظاره ويداه مرفوعتان ، ولم يسمع أمه تقول كعادتها عندما تلاعبه هذه اللعبة : حط الحمام ، بينما تعيد وضع يديها على حجرها ، تضايق الصغير ، وشرع فى البكاء ، لكن حامل المسدس، سدد له نظرات ألجمته ، فدفن رأسه فى صدر أمه، التى كان التوتر والقلق قد بدأ يداخلانها، ليس بسبب الجنيه والشلن المدسوسين فى صدرها ، المصرورين فى قطعة قماش ، فهى لاتظن أن الحرامية يمكن أن يكونو من الضعة والوقاحة ، بحيث يمدون أيديهم الى مخابئ ثدييها ، لكن القلق كان يساورها خوفا من أن يستولوا على الإوزة الموضوعة فى القفة تحت الكرسى الذى تجلس عليه ، خصوصا أن الإوزة كانت تطل برأسها وتحركه بين الحين والحين ، لكن النشالين لم يفكروا مثلها فى الإوزة - خلال هذه اللحظات ، ولم يهتموا بكونها زغدتها وتعبت فى تربيتها ، حتى تأخذها لابنتها العروس التى لم تسبع بعد ، وهى تركب الحافلة الآن فى طريقها اليها لتبيت عندها ، وتذبح لها الإوزة فى الصباح .

كان الحرامية منهمكين الآن فى لمّ فلوس الركاب بسرعة ، لذلك فقد تقدم الذى فى المؤخرة ، وراح يطالب راكبا راكبا بإخراج مامعه من نقود وخلع ساعته ، إن كان يحمل ساعة فى يده ، وكذلك أية حلى ذهبية كالخواتم والأقراط ، مما جعل الفلاح الوحيد فى الأتوبيس ، وحيد وقته بالفعل ، لأنه اضافة الى التسعة عشر جنيها والثلاثين قرشا ، التى كان يحملها فى جيبه، كان يضع فى فمه لبوس ذهب لضرس من اضراس فكه الأيمن ، مما حداه لقفل فمه جيدا ، واخراج كامل مافى جيبه بهدوء، دون أن تنفرج شفتاه عن أدنى همسة سخط ، على عكس العسكرى المجند الصغير الجالس إلى

جواره، والذى فغرفاه دهشة ، ولم يصدق أنه فى حافلة مفروض أن تنقله الى أقرب موقع من وحدته العسكرية حيث نهاية الخط الذى سيضطر لتجاوزه متوغلا فى الصحراء حوالى ثلاثة كيلو مترات حتى يصل الى وحدته، وبدا مايدور أمامه ، وكأنه مشاهد من فيلم أمريكى عنيف ، صحيح أن كل مابجيبه لايزيد عن ربع الجنيه ، وليأخذه النشالون فى ستين ألف داهية ، كما قال لروحه ، لكن المرارة داخلته ، وتضايق لأنه احتفظ بالزوادة التى أعطتها له أمه ولم يأكلها : ثلاث بيضات مسلوقات ورغيف فلاحى وفحل بصل ، ولفتة كبيرة ، غير أن الحرامية خيبوا ظنه ، فلسبب ما ، لم يكلف جامع الفلوس نفسه ، مشقة سؤال العسكرى أن يعطيه مامعه ، ربما عملا بالحكمة : « مالذى تأخذه الريح من البلاط » ، وربما حرصا على وقته الثمين كحرامى ، وبدلا من مجرد النظر الى العسكرى الذى ليس زينة الأمة المصرية على عكس ماتقول إحدى الأغنيات ، طلب الحرامى من العجوز الجالس فى المقعد التالى له أن يبرز محفظته ، ويفرغ مابها ، وقد حاول العجوز استرحامه ، قائلا : «وحياة سيدنا النبى خلى لى خمسة جنيه لا أكثر ولا أقل ، لأن لوزة بنتى لازمها جزمة كاوتش تروح بها بعد بكرة عيد الطفولة فى المدرسة » ، لكن الحرامى طالبه بأن يليس فمه وينكتم ، وقد طلب الرجل الأسود النحيل الجالس فى آخر الأتوبيس طلبا يقترب من الفكرة ذاتها مع فارق فى المبلغ بحوالى ثلاثة جنيهات ونصف ، ولما لم يجبه الحرامى ، أخذ يبرطم لاعناً غباءه وسوء تقديره ، لأنه لو كان قعد على المقهى ، ولعب طاولة وشرب شيشة ، لضاعت المائة والخمسين قرشا فى المفيد ، بدلا من أن يأخذها الحرامية ، لكنه عمل نفسه عاقلا وحكيما ، وقال لروحه : « بدل اللعب والكلام الفارغ ... ادخل على العيال بكيس فاكهة يفرحوا بها » أما الشاب حامل الكتب ولابس النظارة السميكة ، فقد طالبه حامل المسدس أن يكف عن حك الأرض بقدميه ، لأن ذلك يجعله يضرس ،

وهدده بقطعهما إن عاود ذلك مرة أخرى ، فلما أعلن جامع الفلوس انتهاء العملية ، بعد أخذه أربعة جنيهات وستين قرشا من ذلك الشاب ، قال حامل المسدس متسائلا :

– والمحصل !؟

رد جامع الفلوس :

– خلصنا منه ، ولا شئ يذكر معه .

اغتاظ حامل المسدس وزفر بضيق ، وهو يقول :

– ياالله . . نأخذهم نكاية فى الحكومة .

أخذ بشتيمة الركاب وتهديدهم مرة أخرى ، إن حاول أحدهم التحرك، غير أن جامع النقود قاطعه قائلا :

– مع الولية أم العيل حيوان ... هل أقشه ؟

فكر حامل المسدس قليلاً فى أمر الإوزة ، لكنه خشى أن تصيح فتفضحهم وتربكهم ، لذلك لم يرد على زميله ، بل أمر السائق بفتح أبواب الحافلة التى لم تفتح منذ إغلاقها بعد المحطة التى ركب فيها ، ثم أشار لزميليه آمراً :

– ياالله ... نط بسرعة .

فى لمح البصر ، كانت الحافلة تبتعد ، وأرجلهم تسابق الريح الى الخرابة الواقعة خلف الجامع العتيق الواقع فى الشارع البعيد الموازى لذلك الشارع، الذى تركوا فيه الحافلة .

جلسوا يلتقطون أنفاسهم ، وأخذوا يحصون الفلوس ، ويتفحصون المسروقات ، التى كانت حصيلتها ثلاثة خواتم زواج ، واحد فضى ، واثنان تكسرا بين أسنان أبى ندبة على رقبته ، مما يؤكد كونهما لايمتان بصلة إلا للصفيح المدهون ، وخمس ساعات منها اثنتان متوقفتان ، واثنتان لم يعد

لماركتهما أى ذكر ، منذ ثلاثين سنة على الأقل ، أما حصيلة نقود الركاب والمحصل فكانت ثمانية وستين جنيها وثلاثة وتسعين قرشا فقط لاغير .

صرخ حامل المسدس بمرارة :

– ياولاد الأبالسة .

أيّدَهُ أبو ندبة ، راغباً فى تحطيم أى شئ ، فى هذه اللحظة ، فلما لم يجد مايناسب ذلك ، أمامه فى الخرابة سلت فردة حذائه من قدمه ، وخبط بها الأرض ، وهو يقول :

– حثالة .. تفو عليها بلد فيها ركاب أمثالهم .

حامل قرن الغزال ، التى سلّطها على رقبة السائق طوال الوقت ، أعجبه تنظير زميله ، ويبدو أن الموقف كله بدا له ضرباً من المسخرة ، لأن ضحكته شخشخت فى فراغ الخرابة ، وقال :

– يعنى عوضنا على الله فى أكلة الكباب الليلة ... وراحت علينا السكرة .. يعنى لامياه ولاإدام .

واستطرد وهو يتلمس ندبته ، مثلما يفعل عادة عندما يتوتر :

– اتوبيس طويل عريض مليان بالبنى آدمين ، وكل مافيه ثمانية وستين جنيها .. حاجة زفت ... والله يظهر أنهم كانوا مسروقين قبل ماسرقناهم .

رد النحيل ذو النظرات القلقة وهو يجارى زميله فى الضحك الساخر المرير:

– لازم يكونوا حرامية كبار .. كبار ولعبهم على كبير جداً .. ها ها ها...

أخبار صغيرة لا تعني

فى صباح اليوم التالى لقراءتى حادثة نشالى الأتوبيس بالجريدة اليومية، دق جرس الباب ، ففتحته لأجد قبالتى أم محمد الشغالة تلهث من صعود سلم ستة أدوار حيث أسكن فقلت لها :

- ادخلى واقعدى بسرعة يا أم محمد ، نفسك مقطوع خالص .

ردت أم محمد بكلمات تقاطعها أنفاسها ، وهى تحط بجسدها على الأرض إلى جوار الباب ، وقالت :

- تصورى !! الأتوبيس ابن الذين ، وقفت انتظره من طلعة الشمس، حتى الساعة تسعة إلا ، ولماشلت رجلى لأجل اركب حط ذيله فى أسنانه وطار ، فقعدت على الرصيف انتظر ، لحد ما وصل غيره ، ففامرت مع الخلق وطلعت فيه على آخر لحظة ، لكن اجارك الله ، كان جواه لحم فوق بعضه .

رحت أواسيها قائلة :

- المواصلات كلها زحمة ومقرفة ، وكل واحد يقول ياالله نفسى ، ويزاحم غيره لأنه مستعجل وعاوز يروح ليقضى مصالحه بأية طريقة، والسلام ، تصورى ياام محمد مكتوب فى الأخبار قبل يومين أن الحرامية انتهزوا

الفرصة وقشوا كل فلوس ركاب اتوبيس ، لكن حصيلة الفلوس كانت ثمانية وستين جنيهاً بس .

كانت أم محمد قد بدأت فى خلع طرحتها ، وتهيأت لخلع جلبابها الأسود لتبقى بالقديم الذى تحته ، لأنها تشتغل وهى تلبسه عادة ، غير أن ذلك لم يمنعها من التوقف قليلاً لتقول :

– أولاد الحرام كثير ، والجوع خلى الناس مستأسدة على بعضها ، لذلك آخذ أجرتى من الناس مفرطة دايما ، ومستحيل أخليها كلها مع بعضها ، لأنى أحسب حساب أمور من نوع النشل وغيره ، وتلاقينى ولامؤاخذة موزعة الفلوس : شىء فى صدرى ، وشئ أدسه فى شعرى وأصر عليه المنديل وتبقى الطرحة فوقه ، أصل الاحتياط واجب .

حاولت استدراجها الى المثير فى حادث الأتوبيس فقلت :

تصورى ياام محمد الفلوس مع الركاب كانت ثمانية ستين جنيهاً . ردت أم محمد قائلة بصوت يخلو من الدهشة ، بعد أن سألتنى هل تبدأ بتنظيف حجرة النوم أولاً أم غرفة المعيشة :

– محتمل أنه كان يومها أول الشهر ، يعنى الناس كلها محصلة رواتبها، وجيوبها مليانة .

اغتظت ورددت عليها بانفعال :

– ياولية أقول لك ثمانية وستين ، يكون ردك : أول الشهر ؟!

لم ترد أم محمد على كلامى بل سارعت بالرد على الهاتف الذى كان جرسه قد بدأ فى الرنين ، رفعت السماعة وتحدثت قليلاً ، ثم قالت لى :

– واحدة اسمها مدام صافيناز .

صافيناز صديقتى من أيام المدرسة ، وهى رسامة مجهولة تقريباً ، وفى حالة اكتئاب نفسى مزمن من النوع العادى المصاب به معظم الناس فى بلدنا ، لذلك فهى لاتعتنى بمظهرها ، ولا تبتسم كثيراً ، وإن ضحكت قالت :

اللهم اجعله خيراً ، كما أنها كثيرة التصعب تُذّيل كلامها عادة بكلمة «ياالله»، وصافيناز تنتمى إلى الجيل السادس من أسرة اقطاعية قديمة لم ترث منها غير كنيتها الشركسية ، وبياض بشرتها ، وربع بيت قديم تسكنه مع أمها بعد طلاقها من ابن عمتها ، وقد انتمت صديقتى العزيزة بحكم ظروف السنين الأخيرة إلى الطبقة الوسطى المنهارة إلى درك الطبقات الفقيرة ، إذ أنها عملت موظفة فى متحف مهمل مهجور من الزوار تقريباً، وتتقاضى راتباً يكفيها بالكاد هى وابنها الصغير .

حيتنى «صافى» كما أناديها عادة ، وعاتبتنى لأنى لاأسأل عنها ، وبدأت تقوم بمراسيم زيارة صباحية على الهاتف ، فحكت لى عن أحوالها ، وأحوال ابنها ثم عن أحوال الدنيا من وجهة نظرها ، ثم قالت لى وهى التى تفاجئنى يوماً بأفكارها الغريبة المتأملة ، والتى تشعرنى بأنها مجنونة جنونا خفيفاً ظريفاً .

– تصورى : قبل أسبوع كنت راكبة مترو الأنفاق ، وسرحت بفكرى وقلت لروحى : بكرة الأجيال الطالعة كلها تنسى شكل محصل الأتوبيس أو القطار، ومحتمل ان كلمة محصل ذاتها تندثر تماماً وتصبح ذكرى من ذكريات الماضى .

ضحكت وقلت لها :

– طبعاً ، والشىء نفسه ينطبق على حاجات كثيرة ، مثلا وابور الجاز، القلة الفخار ، تصورى ان بنت جارتى الصغيرة راحت تزور خالة أمها فى البلد ، ولما شافت القلة قالت إنها عاوزة تشرب من الزهرية .. هاهاها.

تصورى ماما باعت قنطار نحاس بالكيلو قبل حوالى عشرين سنة ، وكل الناس أصبحت تستعمل الألمونيوم فى الطبيخ ، لذلك اختفى مبيض النحاس تماماً .

ردت «صافى» وهى تلثغ بالراء على طريقتها اللذيذة قائلة :

- افتكرت أيام كنت فى المدرسة ، وبيتنا فى عزبة النخل ، وحسن محصل القطار أبو شعر أبيض وبدلة بترولية بأزرار نحاس أصفر كبيرة، كان له شكل ظريف جدا ، صورته لحد الآن مطبوعة فى ذهنى مع صورة الترعة والنخل والشجر والبيوت القديمة الجميلة ، كل شىء تغير فعلاً.

وجدت الفرصة مواتية للحديث عن حرامية الأتوبيس ، فقلت بسرعة :

- عاوزة احكى لك عن حادثة مضحكة جداً : ثلاثة من النشالين سرقوا ركاب اتوبيس بالإكراه ، والبوليس فتشهم ، وكانت حصيلة الفلوس المسروقة ثمانية وستين جنيها .

ردت «صافى» بهدوء :

- شىء طبيعى جداً ، لأن البلد كلها فى حالة تسيب شديد، تصورى : قبل يومين خطف واحد راكب على موتوسيكل سلسلة ذهب بدلاية عليها «ماشاء الله» من رقبة زميلتى فى الشغل وهى راجعة بيتها بعد الظهر ، وطار بها، ياالله .

حاولت التأكيد على فكرتى :

- قلت لك البوليس قبض عليهم ، والتسيب مسألة مختلفة ، لكن المسخرة فى الثمانية والستين جنيهاً ، فالمبلغ تافه جداً والحكاية مهزلة لأقصى حد .

لم تتجاوب «صافى» مع وجهة نظرى ، وحكت لى أنها اشتركت فى جمعية بمبلغ عشرة جنيهات فى الشهر مع زملائها لتقبض بعد ثلاثة شهور مائتا جنيهاً ، سوف تدفعهم إلى مدرس الانجليزى الذى يعطى لابنها دروساً خصوصية لأن الولد ماحى فى اللغة، لدرجة أنه لايستطيع التمييز بين الـ «بى» والـ «دى» وقلت لها إننى سأضطر للذهاب مساءً إلى فرح ابنة خالة زوجى ، وانه مشوار كالهم على القلب بالنسبة لى ، لكنه واجب والسلام، لأنى لا أحب خالة زوجى وعيالها كونهم متعالين ، وقيمة الناس عندهم لاتقاس إلا بالفلوس، فقالت لى «صافى» إن شأنهم فى ذلك شأن كل الطبقات الجديدة

قليلة الأصل ، وتمنت لى سهرة سعيدة ؛ وكنت سعيدة الحظ فى السهرة بالفعل ، إذ أننى جلست بجوار زوجى فى العرس إلى طاولة ضمت بعض المدعوين من بينهم ضابط بوليس ، ودار الكلام بين المضغ والضحك حول المخدرات والحرامية والشقق المفروشة وشركات توظيف الأموال فوجدت الفرصة مواتية لأتحدث مع الضابط وأقول له :

- هل سمعت حضرتك عن حكاية الأتوبيس والحرامية والسرقة بالإكراه والثمانية والستين جنيهاً ؟! .

كان شاباً ظريفاً لبقاً ، فابتسم وقال :

- أظن أنها كانت على خط "أبو السعود" .

تحمست جداً لأنه مستعد للمشاركة فى الموضوع ، بل ويبدو أن لديه معلومات عنه فقلت :

- فى الحقيقة أنهم ركزوا فى الخبر المنشور بصفحة الحوادث على عملية القبض على الحرامية ، ولم يذكروا رقم الأتوبيس وخط سيره ، تصور كل فلوس الركاب كانت ثمانية وستين جنيهاً ؟! شىء مضحك جداً .

ضحك الضابط لسبب ما ، ثم قال :

- طبعا .. اتوبيس شغال على خط منطقة "أبو السعود" لابد وأن يكون ركابه على قد حالهم ودخلهم ضعيف .

ثم سأل زوجى باعتباره موظفاً فى المطار إن كان يوجد فى السوق الحرة عطور للرجال سعرها معقول أو أرخص من أسعار السوق فى المدينة .

كان الوقت قد مضى وشعرت برغبة فى النوم ، فتركنا الفرح وخرجنا ، زوجى وأنا ، وكنت أفكر طوال الطريق فيما قاله الضابط ، وصافيناز ، وأم محمد ، ولم أكن قد تكلمت مع زوجى فى الموضوع ، فحكيت له وقلت :

- تصور : اتوبيس طويل عريض فيه حوالى خمسين راكباً على الأقل ،

وفى نهاية اليوم ، وكل مافى جيوبهم ثمانية وستين جنيهاً ؟! والله شىء يجعل الإنسان عاجزاً عن التفكير .

تنهد زوجى ، ولم يعلّق ، بل وبدا غير مبالٍ بما أقول كعادته ، وكنت أعرف أنه يرانى – عادة – مبالغة فى تقديرى للأمور ، لكنه فجأة وأثناء عبورنا الطريق قال :

– والله، الحياة أصبحت لاتطاق ، ولو وجدت فرصة للسفر إلى أى مكان إن شاء الله بلاد واق الواق لازم أسافر .

شعرت وقتها بألم وحزن ، وكثير من الضياع .

الدود في حقل الورود

هى تكره الجنون ، تخافه ، ترتعب من فكرة أن يفقد العقل سطوته على الجسد ، فينطق اللسان بما يشتهى ، وترى العين ماتود رؤيته، وتتحرر النفس من كل قيد يرسم لها الزمان والمكان ، تكره فرحة أن تصير يوماً ، كجارتها فتحية الأرناؤوطية ، التى التاثت لما مات ابنها فى الحرب ، فأصبحت تسف تراب الأرض ، وترقص فى عرض الطريق ، بعد أن كانت مضرباً للمثل فى كبريائها واتزانها ، لا تود فرحة أن تحادث نجوم السماء ، وعصافير الأشجار ، أن تفيق الليل إلا قليلاً، لتصرخ تلك الصرخات المروعة، التى تجعل الجيران يهرعون لإغلاق النوافذ ، حتى لايفيق أطفالهم مذعورين، ويأخذهم الرعب .

لذلك جاءت فرحة بنفسها مختارة إلى عيادة الطبيب النفسى لتسأله المشورة ، ولتعرف على وجه اليقين هل هى فى طريقها للجنون ؟ أم أنه أخذها مس من الشيطان ، وجنت وقضى الأمر ؟ ، وهل هناك دواء أو علاج للحالة الأخيرة ؟ . لقد فكرت طويلاً قبل أن تأتى إلى هذا المكان دون إخبار أحد من أهلها ، لأنها تريد أن تعرف بنفسها ، وقبل أى إنسان آخر ماسيقوله لها الطبيب ، فربما كان ثمة أمل فى الشفاء ، وربما يمكنها أن تشتم من كلامه ونظراته ، وطريقة تعامله معها ، أن لافائدة ، وأنها لن تعود، كما كانت من قبل بأى حال من الأحوال ، الفتاة الهادئة الوديعة المرحة ،

فرحة الشابة الصغيرة ، التى لا ترى الدود أبداً ، ولاتخاف منه ؛ فإذا عرفت أنه لاعودة من الطريق الذى سارت فيه ، ولاأمل فى اجتيازه ، فإنها ستحسم الأمر فوراً ، وتقتل نفسها بكامل ارادتها، وفى عز وعيها ، ولن تترك نفسها فريسة للصراخ وسف التراب ، لكل من هب ودب ورآها على هذه الحال ، ولسوف تموت ميتة مضمونة النتائج تماماً ، لاسبيل إلى الرجوع منها ، إذ أنها ستفتح فمها عن آخره ، وتلتهم دفعة واحدة ، ودون أن تغمض عينيها ، كمية هائلة من الدود الأبيض الطرى ، ستكفى ولابد ، للقضاء عليها فوراً من القرف ، فبمجرد أن تستقر تلك الكائنات الفظيعة فى أحشائها ، لن يكون هناك وقت يسمح بالغثيان ، أو الإغماء ، لأن الصدمة الفورية ، ستكون قد حدثت فى التو ، وستودع فرحة ، دونما حسرة ، كل تلك الحياة الهلامية التى حيتها ، وطالما كرهتها ، ولم تجد لها معنى . على أية حال ، هاهى تنتظر حتى تلتقى الطبيب ، ولا داعى لاستباق الأحداث ، رغم كراهيتها للأطباء وعياداتهم الكئيبة المثيرة لمنتهى الوحشة فى النفس ، المذكرة للإنسان دوماً ، بكونه كائناً صغيراً ، ضعيفاً ، لايختلف كثيراً عن الدود فى النهاية ، وإن اختلفت المسميات، ولسوف تصبر فرحة على الانتظار، حتى تأذن لها الممرضة الجالسة خلف مكتبها فى أقصى ركن الغرفة ، فتدخل إلى الطبيب ليقول كلمته فى حالتها ، لذلك راحت تفكر فيما ستقوله عندما تراه ، ولتغض النظر عن تلك الجدران الرمادية العالية ، الشبيهة بجدارن غرفة إعدام ، ولتنسى تلك الإبتسامة الفظيعة المرسومة على وجه الممرضة ، بشفتيها الملطختين بحمرة فاقعة تبدوان معها كدودتين ملتحمتين ، تنفصلان بين الحين والحين عن هوة صغيرة ذات قرار سحيق .

تمالكت فرحة نفسها ، وتعمدت عدم النظر إلى الممرضة ، واستعاضت عن ذلك بالاطراق والتفكير : هل من الأفضل بدء الكلام مع الطبيب من زاوية علاقتها بأسرتها ؟ أم من ناحية مشاكلها مع زملائها فى العمل ؟ أم

تحدثه عن عجزها الدائم عن التكيف والتوائم مع الناس، فهي تشعر بوحشة وغربة لاحد لها ، وأن لا أحد من الذين حولها يفهمها أبداً ، لكن الأهم من كل ذلك هو النوم ، فهي تريد أن تنام ، وتخشى الانهيار بسبب عدم النوم ، لكنها لاتريد أيضاً أن تنعس لئلا يهاجمها ذلك الكابوس المفزع ، الذى يتربص بها ، كلما أغلقت عينيها وراحت في سبات عميق.

كزت على أضراسها غيظاً ، وأسبلت جفنيها ، لكنها سرعان ماجفلت، وفتحت عينيها عن آخرهما ، وحاولت تناسى الرغبة فى النوم ، فأخذت تنظر إلى المرضى المنتظرين أدوارهم فى لقاء الطبيب ؛ لاحظت الفتاة التى ما فتئت تبصق منذ دخولها العيادة ، على نحو يثير الأعصاب ، كانت الفتاة ذات وجه شاحب نحيل ، ونظرات حادة مشبعة بالغضب والاحتقار ، راحت توزعها على كل شيء حولها ، بينما وقف إلى جوارها رجل يرتدى بزة داكنة وربطة عنق ، رغم حرارة الجو ، خمنت فرحة أنه ربما كان والدها ، إذا ظل يربت عليها ، محاولاً اقناعها بالتوقف عن البصق دون أن ينفذ له صبر ، والفتاة لاتكف عن ذلك ، حتى أن فرحة شعرت بجفاف حقيقى فى ريقها ورغبة حادة فى شرب جرعة من الماء .

حدقت فى الأرض محاولة تناسى عبقرية البصاق ، تأملت السجادة القديمة التى لم تفلح فى تغطية جميع بلاطات الأرضية الكالحة، كانت ورداتها بألوان زرقاء حمراء ذابلة ، ضاعت معالمها لكثرة وطئها ، فكرت فرحة مجدداً فى كلامها للطبيب ، ستبدأ منذ لحظة شعورها بأنها ليست على مايرام ، ستحكى له عن حالات الضيق ، التى كانت تنتابها بين الحين والآخر ، دون أن تعرف لها سبباً ، كما ستصارحه برغبتها المزمنة فى البعد عن الناس ، وغياب حماسها للكلام مع أى إنسان . وستقول له أن الحالة صارت أكثر وضوحاً ، عندما ذهبت مع أهلها إلى المصيف، وصارت بصحبة عمتها وابنها وخالتها وأولادها فى الشقة الواسعة التى استأجرها أبوها

لهذا الغرض ، ستحكى للطبيب عن منظرهم المقزز عندما تحلقوا جميعاً حول مائدة الغداء ليأكلوا السمك ، كانت أجسامهم بدينة لم تخل من كروش متفاوتة الأحجام ، ووجوه ممتلئة ذات نظرات رخوة ميتة ، مما جعلها تشعر بأنهم جثث حقيقية وصلت إلى حالة انتفاخها القصوى ، كانت أمامهم كمية هائلة من الأسماك المشوية والمقلية ، راحوا يمدون أصابعهم إليها ويأخذون فى خلع رؤوسها الصغيرة ، وبقر بطونها، والتهام لحمها ، مخلفين وراءهم عظامها الهشة ، وعيونها الصغيرة المحدقة فى اللاشئ ، ظلوا يواصلون ذلك، وهم يتجرعون المشروبات ، ويتحدثون عن ذكرياتهم فى أكل الأسماك ، فقالت العمة، وقد اكتشفت فرحة أثناء ذلك أن رقبتها تشبة دودة ضخمة من تلك الدودات التى رأتها يوماً تنهش بطن ميت على جانب الترعة فى قريتهم عندما كانت صغيرة، قالت إن أفضل سمك أكلته فى حياتها كان فى السويس التى ذهبت إليها مع زوجها عندما عمل بها بعد عدوان ١٩٥٦ ، لكن خالة فرحة عارضتها وهى تطحن بأضراسها ظهر سمكة بلطية صغيرة قائلة : «لا .. أطعم سمك فى الدنيا هو سمك دمياط ، لأن النيل يقابل البحر فيها ، والسمك مطعم من خير الحلو والمالح». وسرعان ما شارك الجميع فى حوار عنيف حول السمك وطرق طهيه ، و أصابعهم وأشداقهم لاتكف عن الحركة ، فتمنت فرحة وقتذاك ، لو كانوا قد وافقوا على تركها بمفردها فى القاهرة ، كما رجتهم قبل أن يأتوا إلى المصيف، إذ أنها تذرعت حينذاك بعدم حصولها على إجازة من عملها، لكن أمها رفضت بشدة ، وسارع أبوها بحل المشكلة مع طبيب الشركة صديقه ، فحرر لها شهادة طبية تفيد مرضها خلال فترة المصيف ، فلما ضيقوا عليها الخناق، قالت إنها كبيرة بما يكفى لتبقى فى البيت بمفردها ، لكن أمها حسمت الأمر بقولها : « مهما كان .. أنت بنت ، مستحيل تنامى الليل وحدك فى البيت » .

وهكذا جاءت معهم مرغمة ، ووصلت إلى ماهى عليه ، وربما لو تركوها ، لكانت تنعم حتى هذه اللحظات بالسكينة وطمأنينة البال .

ولسوف تشرح للطبيب كذلك ، كيف أنهم وتروا أعصابها كثيراً ، بإلحاحهم المستمر على قبول عريس تقدم لها منذ فترة ورفضته ، رغم وجاهة رأيها فى علة رفضه ، فهو ذو جسد مترهل ، ونظرات لزجة هلامية ، أشعرتها عندما كان يسير إلى جانبها مع بقية أهلها بعد خروجهم من المطعم الذى دعاهم للعشاء فيه ، بأنه يزحف على الأرض ، ولايسير مثلما يفعل الناس ، فضحكت عمتها ، التى كانت أشد أفراد العائلة تحمساً للعريس ، لكونه عين ابنها موظفاً فى شركة أبيه الخاصة، وقالت وهى تلتهم بتلذذ حلوى رجراجة مثلجة ، إن ما قالته فرحة عن الرجل ، «مضحك جداً ، ولا يمكن بسببه رفضه كعريس ، لأن الرجال ليسوا بالهيئات والأشكال ، والواحد منهم لايعيبه إلا خلو جيبه من الفلوس » .

وفى يوم آخر ، أعادوا طرح موضوع العريس مجدداً ، وأم فرحة فى المطبخ تعد طعام الغداء ، الذى كانت تفكر حائرة فى أصنافه ، بينما كان بعضهم مايزال على مائدة الإفطار ، فنادتها أختها لتسمع كلام فرحة الغريب عن العريس ورأيها فيه ، رغبت فرحة وقتها أن يخرسوا جميعاً ، لتجد الفرصة فتقول لهم :

– الحق أقول لكم ياجماعة أن حياتنا سخيفة جداً ، وبدون معنىً ، ومن حوالى سنة وفكرى مشغول بحكاية أننا نشبه الدود ، أكل وشرب ونوم ، أنا نفسى حياتنا تتغير ، نعمل حاجة ذات معنى ، نفكر فى الدنيا بطريقة مختلفة، تشعرنا أننا ناس ، بشر ، مختلفين عن الدود فعلاً . لم يضحكوا وقتها ملء أشداقهم لأنها لم تنطق بحرف ، وكانت تشعر بصداع رهيب يضغط رأسها ، وهم يواصلون كلامهم عن العريس ، فقالت خالتها :

- انت كبرت يافرحة ، وسنة جديدة ، تمر عليك ، تجعلك فى العنس.
فأيدتها أختها أم فرحة قائلة :

- الحقيقة وعلى بلاطة هى عانس فعلاً ، بعد الخامسة والعشرين ، يصبح ارتباط البنت مشكلة ، لأن زهوتها تروح بالتدريج ، وتدخل فى ديوان النساء، وتقل فرصتها فى عريس معقول .

عمتها قالت : الرجل مستعد ، وعنده شقة ، ومفروض أن نبوس أيدينا وش وظهر ، لأنه بسبب أزمة الشقق ، نادراً مايكون العريس عنده مطرح للسكن ، يعنى أهم مشكلة محلولة والحمد الله .

وأضافت : إنه ابن ناس طيبين ، وأهله ميسورون ، لن يطالبوا بأسود أو أبيض فى الجهاز وتوضيب البيت .

ثم أن ابنة عمتها اقترحت ضاحكة أن تتزوج العريس بدلاً من فرحة ، لأنها مستعدة للزواج فى التو واللحظة ، ولاترغب فى اتمام تعليمها ، وكانت فى هذه الأثناء تطلى أظافرها الطويلة بلون أحمر دموى فشتمتها أمها ، لأنها مازالت مقصوفة رقبة ، لم تبلغ السادسة عشر من عمرها بعد ، وحتى القانون لايجيز تزويجها ، فرجتهم فرحة الكف عن الزعيق والشجار ، وكانت ترغب فى الصراخ بعزم حيلها ، فآثرت تركهم ودخول حجرة النوم لتستلقى على السرير ، لكن خالتها تبعتها بسرعة لتلاطفها بعد أن لاحظت غضبها ، وقالت لها ألا تتضايق لأن المفروض أن يأتى الناس للمصيف للضحك والفرح ثم إنها قدمت لها بعضاً من اللب لتقزقزه وتحرك حنكها وتتسلى وأضافت قائلة « والله أنا شايفة مزاجك معكر من يومين يافرحة ، وأكلك ضعيف مالك يافرخة ؟ » .

وضحكت لأنها قلبت الحاء خاء ، كما يلذ للجميع مناداة فرحة على سبيل الممازحة والتحبب ، فلما أجابت فرحة أنها بخير ، اقترحت الخالة على

نفسها أن الفتاة فى حالة غرام متعثر ، وهى ترفض الزواج لهذا السبب، وفاتحتها فى الأمر، لكن فرحة الحزينة ، نفت ذلك تماماً، وطلبت من الخالة تركها فى حالها ، فأعلنت لها الأخيرة أنها أصبحت واحدة معقدة، حالتها كرب .

فى المساء التالى، كانوا جالسين يلعبون الورق : أمها وخالتها وعمتها وزوجها ، بينما نسيم البحر المنعش يتغلغل فى النفس تاركاً شعوراً رائعاً، وكانت فرحة جالسة إلى جوارهم تتابع ببصرها عناق الأمواج المتلاحق للشاطئ ، وهى تروح وتجيء بصخب رائع لاينتهى وسرحت روحها بعيداً ، فحلمت بالسير على الرمال وإلى جانبها شاب تحبه ويحبها ، ويتحادثان برقة وحنو عن آمال وأحلام تضمهما فى عالم جميل، يتمتع الناس فيه بمباهج الروح قبل مباهج الجسد ، كانت تحدق فى البحر حالمة ، وتفيق بين الحين والحين على الضجيج الحادث إثر هزيمة أحدهم فى لعب الورق ، ثم تحدث زوج خالتها عن ضرورة البحث عن أحد المعارف ليساعدهم فى تسهيل خروج سيارة من الجمرك تخص ابنه العائد من الخليج ، وأثناء ذلك جاء أبوها معلناً إحضاره فيلماً جديداً للفيديو طالباً منهم أن يخمنوا اسمه ، وعندما يئسوا بعد ترديد كل أسماء الأفلام المسلية فى دور العرض ، والتى يعلن عنها فى التليفزيون بين وقت وآخر ، فاجأهم باسم الشريط وهو «الزحف الرهيب» وكان عنواناً لفيلم رعب مشهور فصاحوا وصفقوا، وقاموا وقعدوا لفرط الابتهاج والفرح ، فقامت فرحة وكان يداخلها شيء من القلق ، ودخلت غرفة النوم تستلقى على السرير ، لكنها ظلت مفتوحة العينين ، تحدق فى لوحة معلقة قبالتها ، رسم عليها امرأة بضة الجسد ، ممددة على فراش وثير ، وقد طرحت عليها ملاءة من الأطلس الأصفر ، تخفى من جسدها أقل مايمكن ، فلم تسترح لرؤيتها وآثرت إغماض عينيها لتنام ، لكنها هبت مذعورة بعد قليل ، وسارعت بإشعال النور وهى تلهث من الرعب والفزع ،

وصور الكابوس الذى داهمها لاتفارق عينيها ، إذ رأت كما يرى النائم ، أنها كانت تجلس بمفردها فى سهل واسع منبسط تمتد عند أطرافه حقول قمح بديعة تتمايل سنابلها مع هبوب النسيم عليها ، فتبدو وكأنها وشاح ذهبى أصفر لامثيل له يحوط بأشجار السهل الخضراء الزاخرة بعجيب الثمر وغريب الطير المغرد الشادى بأصوات ساحرة خلابة ماسمعت فرحة مثلها قبل ذلك قط ، فحارت إلى أى مكان فى السهل تذهب، لتجرى وتمرح وتمتع روحها ، وإذ هى فى حيرتها وقعت عيناها على بستان زهر امتد حتى خط الأفق، وقد ضم إليه مالا يمكن وصفه من آيات الله فى بديع الورد ، ونضير الزهر ، الذى عبق المكان بعبيره وشذاه واريجه وعطره، فأخذت فرحة ، تتنسم كل ذلك وتعب منه فى صدرها عباً وهى تقول لروحها، ماأجمل الحياة، ما أعظم الطبيعة ، وبينما هى فى تلك الحال من النشوة والارتياح ، إذ بغمام داكن يملأ السماء ويسد الأفق ، فنظرت إلى البعيد لترى دودات ضخمات رخوات ، نوات ألوان رمادية كئيبة ، تتقدم شيئاً فشيئاً حتى وصلت سهل القمح الفسيح ، والتهمته فى لمح البصر، ثم واصلت زحفها إلى حيث الأشجار والأطيار ، فجردت الأغصان من خضرتها، وأرعبت الأطيار رؤيتها ، فراحت تفر طائرة مرسلة أصواتاً حزينة باكية ؛ وعندما بلغ الدود بستان الورود ، أخذ فى التهام الأحمر والأزرق ، والأصفر والأبيض ، ومحو كل ماهو مفرح للعين شارح للقلب ، انتصب واقفاً ككتل هائلة من الهلاميات الرمادية ، تعلوها وجوه بشرية ضخمة، اكتشفت فرحة فيها ، ملامح أمها وابيها ، وعمتها وخالتها ، فأخذت تعدو من فرط الرعب ، زاعقة بكل مافيها من عزم وهى تنتحب قائلة :

– ياطير ، ياشجر ، ياقمح ياذهب ، ياورد ياعجب ، يانسيم ياسلسبيل؛ فلم يردد صداها إلا صفير الريح ، عبر أرجاء السهل الفسيح ، فصرخت المسكينة صرخة عظيمة وقد أخذت بتلابيبها الريح ، وسقطت مغشياً عليها،

وعندما أفاقت ، وفتحت عينيها ، وجدت نفسها فى السرير ، ودت لو استطاعت أن تقص على الطبيب ذلك الحلم بالتفصيل ، مثلما رأته وظل محفوراً فى ذاكرتها ، وتخبره كذلك أن الكتل الهلامية الضخمة ذات الوجوه الكئيبة ، لاتفتأ تهاجمها فى أحلامها منذ ذلك الوقت ، كلما نعست ونامت مما يسبب لها ألماً هائلاً ، حتى أنها أصبحت تخاف النوم ، والأهم من هذا أنها صارت ترى الدود فى ساعات صحوها ، فمنذ فترة جاءت خالتها لتزورهم ، وقالت إنها ستسافر إلى بور سعيد لشراء كسوة الشتاء من المنطقة الحرة ، وكانت قد أحضرت معها فطيراً بالسمن والعسل ، ثم اقترحت أكله بسرعة وهو ساخن حتى يتلذذون بطعمه ، فلما قالت فرحة إن ساعتين لم تمضيا على وجبة الإفطار التى التهموها ، ضحكت أمها وخالتها، وراحتا تأكلان بسعادة بالغة ، فرأت فرحة أربعة قرون إستشعار ضخمة ، تنبت على رأسيهما ، فخافت ، وانسحبت إلى غرفتها ، آخذة فى الانتحاب بصوت خفيض ، وقد هيمن عليها الحزن والألم .

عندما تذكرت ذلك وهى جالسة فى عيادة الطبيب ، رغبت فى أن تفعل مثل الفتاة التى كانت ماتزال واقفة لاتكف عن البصاق ، رغم توسلات الرجل المرافق لها ، وجاء شاب نحيل بصحبة رجلين بجلاليب طويلة ، كانت عيناه حزينتين جداً ، وهو لايكف عن الابتسام الساخر المرير ، هازاً رأسه كمن لايصدق شيئاً قد حدث .

فكرت فرحة فى إخبار الطبيب أنها تخاف الدود منذ صغرها ، وأن الدودة الوحيدة التى أحبتها ، هى دودة القز ، إذ كانت تربيها فى صناديق الأحذية الكرتونية ، أيام المدرسة ، لتراقب مراحل نموها حتى تصير فراشة وتطير .

لكن المشكلة الآن أنها صارت ترى الدود فى كل مكان ، فمنذ حوالى أسبوعين تشاجرت مع رئيسها فى العمل ، وهى تكرهه لأنه لص ومرتشى،

فشتمته وقالت له يادودة ، وكان بصرها أثناء ذلك قد وقع على كرشه المترهل، وعنقه القصير الغليظ ، وقد حولت إلى تحقيق إدارى لهذا السبب .

ثم أنه فى اليوم التالى لذلك ، جاءت جارتهم لتزورهم، وهى امرأة بدينة ذات لغد ضخم أسفل ذقنها ، وكانت تغطى ساعدها الأيسر بكمية من الأساور الذهبية ، فقالت لها فرحة مرحبة : أهلاً ياست دودة؛ لعل الطبيب يجد حلاً لهذه المشكلة ، لأنها تفاقمت جداً ، إلى درجة أن عمها اتصل بهم من السعودية التى يعمل بها منذ خمس سنوات ، فقالت لأبيها وكان يستحم حينئذ : اخرج بسرعة لأن عمى دودة على التليفون .

بصقت الشابة البصّاقة من جديد ، فانفجر الشاب المبتسم ضاحكاً بشدة وقال لها :

– ريقك ضعيف ومحدود التأثير ، لأن الوساخة بالكوم يامسكينة .

ثم انتابته حالة بكاء مرير ، وهو لايكف عن ترديد : «الوساخة بالكوم» فراح صاحباه يحاولان تهدئته ، واقترح أحدهما على الممرضة إدخاله للطبيب بسرعة ، بعد أن دس فى يدها عملة ورقية من فئة الجنيهات العشرة، وكانت فرحة وقتها تنظر إلى الممرضة وهى تقف وتتحرك من مكانها فى اتجاه حجرة الطبيب ، ولاحظت مؤخرتها المترجرجة وهى تسير حاكة الأرض بحذائها، ثم رأت قرنا إستشعار ينبتان فى رأسها ويتمددان شيئاً، فارتعبت ، وقررت الجرى بسرعة إلى الطريق .

عجين الفلاحة

- ١ -

فتح الباب فجأة ، فغمر ضوء الشمس الحجرة الترابية المظلمة ، الخالية من أية فتحة أخرى ، فما كان من القرود الثلاثة إلا أن تقافزوا في صخب ، على أمل حدوث بداية لنهاية العذاب ، الذى عاشوه طوال الليلة الفائتة .

حاول القرد الأول ، الذى كان «شرشر » القرداتي قد أطلق عليه اسم «زقزوق » أن يبدو لطيفاً ، فرفع يده فى شئ يشبه التحية «لشرشر» الذى ولج من الباب ، لكن الأخير لم يبد أدنى استجابة لذلك ، ربما بسبب تعاليه ونظرته الفوقية للقرود، وربما بسبب سرعة انهماكه مع زوجته ، التى دخلت بعده ، فى تقييد الماعزة التى جاءا بها معهما ، والتى لم يجد القرود الثلاثة سببا مفهوماً لوجودها حتى الآن ، على أية حال، لما لم يجد «زقزوق » استجابة معقولة من الرجل الواقف أمامه ، ابتلع الإهانة ، وارتكن بيده على أرضية الحجرة كما لو كان ينتظر شيئاً.

«مرزوق » هو القرد الثانى ، وكان يشبه زميله «زقزوق » إلى حد كبير، ماعدا أن جسده كان أقل فتوة وشباباً ، وتقاطيع وجهه كبيرة بعض الشىء ، ويبدو أنه كان من ذلك النوع المسالم هادئ الطباع ، لأنه اكتفى بالنظر الى مايفعله «شرشر» بالماعزة بعد أن خلع معطفه العسكرى الذى لم يعرف «مرزوق » بالطبع أن شرشر قد اشتراه من وكالة البلح ، وبقى «مرزوق »

ساكناً لاينطق أو يقوم بأية حركة يمكن أن تلفت النظر إليه ، فبدا وكأن الأمر لايعنيه على الاطلاق .

أما القرد الثالث ، فقد أسماه «شرشر» لسبب غير مفهوم «معتوق » ربما تمشياً مع الأداء الصوتى لإسمى رفيقية ، وربما بسبب شعور مبهم انتابه ، وجد معه أن هذا الاسم هو الأكثر انطباقا عليه ، وقد ظل هذا القرد، الذى تبدو فى نظراته جدية واعتداد شديد بالنفس ، قابعاً فى مطرحه يشعر بضيق شديد وقرف لاحدود له ، بسبب وجوده فى هذا المكان الضيق المظلم الذى اضطر للمبيت فيه طوال الليلة الماضية ، بعد أن احضروه من الجبلاية الكبيرة ، بحديقة الحيوان ، فأصبح محروماً من مشهد السماء الواسعة ، ممنوعاً من الانطلاق فى مكان فسيح . والحقيقة أن «معتوق » كان شخصية معقدة بعض الشىء ، فهو لايأخذ أى موضوع ببساطة أبداً مثلما يفعل رفيقاه ، كما أنه يميل إلى التفلسف كثيراً ، فعلى سبيل المثال ظل طوال الطريق ، منذ أن ابتاعهم « شرشر » من حديقة الحيوان ، حتى جلبهم إلى هذه الحجرة الضيقة ، يتحدث عن الاحتمالات الممكنة للأسباب التى تقف وراء تخلى الحديقة عنهم لذلك المدعو « شرشر » فقال إن «مرزوق» قرد عجوز، تخلصوا منه لأنه كان دائب الشجار مع ذكور الجبلاية الآخرين ، أما « زقزوق » فهو مازال شاباً صغير السن ، وربما دفع «شرشر » فيه مبلغاً اغراهم بالتخلى عنه ، أما هوَ .. « معتوق » فلا يداخله شك فى أنهم ابعدوه عن الحديقة لأنه حرض قرود الجبلاية على الاضراب عن تناول البرسيم طوال أيام أسبوع ، حتى يجبروا إدارة الحديقة على استبداله فى بعض الأيام بأصناف أخرى من الفواكه والخضار التى رأى بنفسه كثيراً من موظفى الحديقة يحملونها معهم أثناء خروجهم بعد انتهاء عملهم ، حتى أنهم كانوا يخبئون بعض الأطعمة التى كان كثير من الزوار يعطونها لهم ليطعموها لقرود الجبلاية ، وهذه كلها كافية لجعل القرود تعيش بمستوى لائق لايقل عن المستوى الذى اعتادت عليه فى الغاية .

ولو توخينا الانصاف لقلنا إن « معتوق» لم يكن معقداً نفسياً لكنه كان فقط قرداً خبر الحياة أكثر من زميليه فهو الوحيد بينهم الذى لم يولد فى الجبلاية بل ولد فى الغابة الفسيحة الممتدة ، التى تلامس المحيط بأطرافها ، والتى تتيح لأى قرد ، حتى لو كان حدثاً صغيراً اعتلاء أطول شجرة جوز هند يطاول بها عنان السماء، ويشبع بصره بتجليات الطبيعة الفاتنة حيث تصخب المياه بالأزرق اللازوردى ، الذى لم تدنسه بعد نفايات المدنية الحديثة ، وتصدح الطيور فيها بتنويعات على أكثر من لحن واحد ، وتغرف روحه من الأخضر المتوج ملكاً مطلقاً لكل الألوان ، وينبثق منها ألف أخضر وأخضر يطمئن النفس ، ويغنى الروح .

هكذا .. وحتى بعدأن استقر « معتوق » فى الجبلاية ، بعد أن جلبوه إليها مع أمه ، لم ينس أبداً تلك الحياة الجميلة الواسعة ، التى سلبت منه ؛ الحياة الخليقة بأى قرد سوىّ قادر على القفز والحرب والحصول على طعامه بيديه القويتين وممارسة الحياة التى يرغبها ويختارها .

لكن «شرشر » لم يفكر لحظة فى تحليل شخصية أى من القرود الثلاثة ، فهو قرداتى قديم لايهمه من أمر القرود إلا النجاح فى تدريبها بأسرع وقت ممكن ، وفقاً للطريقة التى ورثها أباً عن جد ، والتى توارثها جدوده عن أبائهم وجدودهم أيضاً فتسيدوا على القرود وتحكموا فى مقدراتها ، لذلك لم يخطر فى بال « شرشر » أبداً أن يتأمل فى أحوال القرود ، ولم ينشغل بمعاناتها كما أنه لم يتساءل يوماً عن أحلامها وأمانيها فى الحياة لأنه كان منشغلاً بضرورة اتقانها لعجين الفلاحة ، ونوم العازب ، ومشية الأمير ، ووقفة الخفير ، حتى يتسنى له بيعها بثمن جيد لقرداتى آخر ، أو ليسرح بواحد منها هو شخصياً فيرتزق به فى الشوارع والأسواق .

خرجت امرأة «شرشر» ثم عادت إلى الحجرة مسرعة ، حاملة بيدها عصا طويلة غليظة ، ولما كان «زقزوق » كما قلنا ، مازال غراً لايكف عن

الزهو بنفسه فقد تحرك قليلا فى محاولة منه للقفز على العصا واعتلائها مستعرضاً رشاقته ومهارته كقرد فى عزّه وشبابه ، لكن السلسلة التى تقيده حالت بينه وبين ذلك، إلاّ أنه لم يشعر بالإحباط لذلك لأن «شرشر » صرخ فجأة مكشراً عن أنيابه ، وبدأ بضرب الماعزة ضرباً موجعاً وقال لها :

– يا الله .. اعملى نوم العازب ، بسرعة .

وبدلاً من أن تحاكى الماعزة نوم العازب ظلت تمأمىء وتصرخ بصوت حاد لابد أن يصدر عن ماعزة تعذب على هذا النحو دون سبب مقبول ، ثم أنها راحت تحاول التملص من قيد أقدامها ، ولما لم تجد فكاكاً زادت من صراخها واحتجاجها .

تبادل القرود الثلاثة القابعون فى زاوية الحجرة نظرات استفهام؛ حاول «معتوق » تفهم مايدور أمامه فكل معلوماته المترسبة فى خبايا ذاكرته عن جنس الماعز من زمن الغابة هى أنها كائنات وديعة ، سريعة العدو ، تأكل الأعشاب والألياف ، وتقدم أجسادها دون صراع كبير لقمة سائغة للأسود والنمور وبقية ضوارى الغابة اللاحمة ، ولما لم يجد تفسيراً مقبولاً للمهزلة التى تدور أمامه ، آثر الصمت مركزاً ذهنه فى محاولة جديدة للفهم .

الغريب أن «شرشر» بدلا من أن يكف عن ضرب الماعزة ، التى بدت وكأنها على وشك النفوق ، بعد أن تحشرج صوتها ، وخرج لسانها ، الأحمر الطويل من بين فكيها ، وخرج الزبد من فمها ، وزاغت نظراتها ، زاد من وتيرة عصاه ، وصاح بعنف :

– عجين الفلاحة وإلا شربت من دمك يابنت التيس .

لم تفهم الماعزة الإهانة فهى بنت تيس فعلاً ، لكنها فهمت أن هذا الكائن الشرير الذى يضربها بلا سبب سوف يجهز عليها فعلاً ، فراحت تثغو متوسلة عله يرحمها ويكف عن الضرب بلا جدوى ، لكنه بعد قليل ، وبدون مقدمات توقف عن الضرب ثم ارتدى معطفه العسكرى فوق جلبابه وأحكم

وضع ربطة عنقه القديمة ، وسرعان ماسحب الماعزة خارجاً وأعاد قفل باب الحجرة على القرود الثلاثة .

– ٢ –

عندما أقبل اليوم التالى لتلك الأحداث المؤسفة كان القرود الثلاثة قد أعياهم التفكير فى سلوك «شرشر » العنيف مع هذه الماعزة البائسة. اقترح «زقزوق » الذى لم يكن يعرف شيئاً عن الماعز ، أن الماعزة لابد أن تكون قد خطفت اصبعاً من الموز من يد «شرشر» بعد أن قشّره وهّم بالتهامه ، أما «مرزوق » الذى كان جائعاً جداً وقتها لأنه لم يأكل مايكفيه منذ مجيئه لحجرة «شرشر» الكئيبة فقد وافق على فكرة «زقزوق» مع تعديل بسيط فيها فاستبدل اصبع الموز بحفنة من الفول السودانى ، لكن «معتوق » ظل متضايقاً جداً من ضحالة أفكار رفيقيه، وتدنى مستوى النقاش ، لذلك سارع بنسف نظرية الموز والفول السودانى من أساسها لأن الماعزة ليس من عادتها أكل مثل هذه الأشياء .

عموماً ، لم يترك لهم «شرشر» مساحة كافية من الوقت لمزيد من التمحيص فى مسألة الماعزة ، فلقد اقتحم الحجرة فجأة بمعطفه إياه وربطة العنق ، التى كان يتدلى طرفها الطويل على صدر جلبابه ، وهى الربطة التى ظن القرود منذ أن رأوها للمرة الأولى أنها ولابد القيد الذى يقيد به «شرشر» أناسا آخرين أقوى منه وأكثر شراً ، وبينما هو آخذ فى خلع معطفه وتعليقه على المسمار الوحيد فى الحجرة الذى كان يثبت لوحة كرتونية لامرأة شقراء باسمة تحتسى الكوكاكولا مثلما فعل فى اليوم المنصرم ، دخلت أمرأته بالماعزة ، وبدأت مشاهد اليوم السابق تتكرر مع بعض التعديلات البسيطة ، فبعد أن قلب «شرشر » سحنته وشمّر عن ساعديه بدأ فى ضرب الماعزة لكن الجديد الذى أضافه هو أنه بينما كان يصرخ قائلاً : نوم العازب، انقلب على ظهره وتمدد على الأرض رافعاً ساقه ، التى تشبه

ساق الماعزة إلى حد كبير، ماعدا أنها كانت مغطاة بشعر أسود خشن أقل كثافة بكثير من شعر الماعزة ثم وضع هذه المشعرة على الأخرى التى لاتقل شعراً بينما استند برأسه الى ذراعيه المعقودتين خلفها مكررا نداءاته للماعزة بأن تقوم مثله بعمل نوم العازب وإلا أذاقها عذاباً لم يذقه جن أو بشر .

عند عجين الفلاحة هب واقفاً ، وراح يحاكى حركات فلاحة ترفع العجين وتمطه الى أعلى ليتشرب أكبر كمية ممكنة من الهواء وينتفخ ورغم أن الماعزة كثيراً ماشاهدت الفلاحات فى القرية يقمن بهذه العملية الشاقة بعض الشيء مرات ومرات ، إلا أن المسكينة لم تتصور نفسها تقوم بذلك فى يوم من الأيام ، لذك صعّد «شرشر » من ضربه الوحشى لها ناعتاً إياها بأقذع الشتائم ، التى تتجلى فيها إبداعات عالمه السفلى ، ثم أنه لم يكف عنها الأذى، إلا وهى على شفا الموت ، فسحبها إلى الخارج مرة أخرى ، وأغلق الباب وراءه بعنف .

– ٣ –

ملخص ماتلا ذلك هو أنه كاد يجن جنون القرود الثلاثة من تصرفات «شرشر» الشنيعة ، والتى لايوجد ما يفسرها على الاطلاق . حاول «زقزوق» المسحوب من لسانه ، دوماً ، أن يقول شيئاً، لكن «معتوق » أسكته بنظرة معناها الفعلى : إخرس ، فكاد أن يكتم أنفاسه مع صوته عندئذ ، اكتفى «مرزوق» بأن يقول :

– يظهر أن الموضوع خطير ياجماعة .

– ٤ –

فى اليوم الثالث ، جاء «شرشر» وفتح الباب بسرعة ، وقد بدا نافد الصبر ، ارتجفت قلوب القرود الثلاثة ، رعباً ، حتى أن «مرزوق » المتألم بسبب دوس « زقزوق» المرتبك على ذيله آثر السكوت كاتماً ألمه ولم يحاول

دفع زميله عنه ، أما الماعزة فقد جاءت هذه المرة منهارة ، زائغة النظرات، تمأمىء ، بأسى ، حتى قبل أن تمتد إليها عصا معذبها ، ولما بدأت حفلة التعذيب حيث هوت العصا على كل موضع ممكن من الجسد الهزيل ، وباتت المسألة واضحة وضوح الشمس لكل عين ترى وكل أذن تسمع أن الماعزة لن تعجن عجين الفلاحة بأية حال ، ولن تنام نوم العازب مهما كان الأمر ، حدثت المفاجأة المذهلة ، التى ألجمت الجميع ، فقد أخرج «شرشر» وعلى حين غرة من الجيب السيال لجلبابه سكيناً حادة انقض بها على رقبة الماعزة وذبحها بينما أخذ يتلو الشهادتين .

— ٥ —

لم يغمض جفن للقرود الثلاثة طوال ليل ذلك اليوم ، فقد ظلت أعصابهم مشدودة منذ أن ترك «شرشر» الحجرة وأغلق بابها عليهم بعد أن حمل الماعزة المغدورة وبقيت رائحة الدم الذى لم يجف تماماً تملأ أنوفهم ، وتنشر الرعب فى أوصالهم ، بانت خطورة الموقف بعد أن طرح «معتوق» على رفيقيه سؤالاً كان أشبه بالقنبلة ، التى انفجرت فجأة :

– ماذا لو جاء «شرشر» غداً طالباً منا أن نقوم بما كان يطلبه من الماعزة.

حاول « زقزوق» الاعتراض على السؤال من أصله ، وقال إنه من المستحيل أن يطالبهم بذلك لأنهم لم يفعلوا شيئاً يغضبه أو يؤذيه ، وعلاقته بالماعزة لابد أن يكون بها شىء من ذلك دفعه لقتلها .

ابتسم «معتوق» ساخراً لأنه كان قد شاهد فى الغابة منذ زمن بعيد مايكفى ليرد به على كلام «زقزوق». فالفريسة لاتستفز المفترس الذى يفترسها لكنه آثر، بدلاً من مناقشة «زقزوق» التافهة أن يأخذ رأى «مرزوق» حتى يتوصل ثلاثتهم لنتيجة فى هذه المسألة الخطيرة .

تنحنح «مرزوق » ، وحاول أن يكون هادئاً وهو يقول :

- الحقيقة أننى لاأظنه سيطلب منا ذلك فنحن لسنا ماعزاً على أية حال ، وأغلب الظن أنه سيعيدنا إلى الجبلاية غداً على الأكثر ، ولكن حتى إذا طلب منا ذلك فما المشكلة ؟ إنها مسألة بسيطة للغاية أن نقوم بتقليد حركاته فهى لاتحتاج إلى كثير من الجهد والعناء ، ومن ناحية أخرى أنا أرى أن نفكر جيداً قبل أن نخالفه ، أو نعصى أوامره ، فهو كائن متهور لن يتورع عن ذبحنا مثلما نبح ماعزته ، قاطعه «معتوق» قائلاً :

- لكنك قلت أننا لسنا من الماعز منذ قليل !

هرش « مرزوق » رأسه الصغيرة وتلاحقت نظراته فى ارتباك ثم استكمل كلامه قائلاً :

- صحيح لكنك رأيت بنفسك السكين ، كما أن لديه سلاسل يقيدنا بها كما ترى الآن والله وحده يعلم ماذا يمتلك أيضاً من وسائل وأساليب لانقوى على مواجهتها.

تساءل « معتوق » مستنكراً :

- وأظافرنا الحادة ؟! وأسناننا ؟! وأنيابنا المسنونة ياحبيبى ؟ أليست موجودة لدينا ؟! .

لم يرد «مرزوق » وآثر الصمت ، فمعتوق برأيه متطرف الرأى ، متهور السلوك ، ولايتعلم من دروس الماضى أبداً ، فهو لم يستوعب جيداً درس طرده من الجبلاية ، وحبسه فى قفص منفرد ، بعد أن حرض القرود على الاضراب عن أكل البرسيم ، لذلك فهو ، أى «مرزوق» لن يأخذ برأيه أبداً، ولن يعمل بمشورته لأن «شرشر» الشرير يمكن أن يقتله وعندها لن يفيده كلام «معتوق » وياروحى مابعدك روح .

بصق « معتوق » على الأرض بعد أن أشاح زميلاه بوجهيهما عنه وراحا يتناقشان فيما سوف يفعلانه بعد عودتهما إلى الجبلاية مرة أخرى ، فقال زقزوق إنه سوف يتزوج فوراً ويشكل لنفسه طاقماً من الحريم الخاص يخلف

له العيال ، الذين يحملون ذكراه فى الدنيا ، أما «مرزوق» فقال إنه بمجرد وصوله الى الجبلاية سالماً سيحمد الله على سلامته ويبوس أرضها وسوف يعيش بعد ذلك جنب الحائط ، فلا مشاحنات ولا معارك مع أى قرد آخر ، مهما كان الأمر ، حتى لو حكمت عليه الظروف أن يأكل لقمته بدُقّة .

كان «معتوق » هو الوحيد الذى لم يقل لنفسه شيئاً وكانت تعتريه رغبة شديدة فى البصق مرة أخرى .

- ٦ -

فى اليوم الأخير جاء «شرشر» وزوجته لكن بدون ماعزة طبعاً .. بدأ طقوسه بخلع المعطف والتكشير عن الأنياب ، ثم أنه حمل العصا بيد ومد اليد الأخرى ساحباً «زقزوق» من السلسلة إلى وسط الحجرة وهتف بصوت ملؤه الأمل فى النجاح :

- ياالله .. نوم العازب .

بدأ « زقزوق » مرتبكاً ، ربما لأنها المرة الأولى ، التى يجبر فيها على أداء دور لايعرفة جيداً ، ولفرط ارتباكه قام بأداء عجين الفلاحة بدلاً من نوم العازب ، مما استدعى أن ينال ضربتين قويتين على مؤخرته ، التى ازدهرت بالاحمرار أكثر مما كانت عليه من قبل .

تدخلت الزوجة التى كانت واقفة تراقب القرد الفتى ، وقالت لزوجها :

- بالراحة عليه ياشرشر ، علمه أنت الوضع الأول .

انقلب «شرشر » على ظهره متخذاً وضع نوم العازب مثلما يفعل دوماً فسارع «زقزوق» بمحاكاته بخفة ورشاقة دفعتا الزوجة لأن تضحك بسرور ، فانبسط شرشر لانبساطها ، وقال :

- جدع .. طيب عجين الفلاحة .

قامت الزوجة بالانحناء قليلا ، وأخذت تصور عملية العجن فى دلال وميوعة ، مما جعل «زقزوق» يتمالك نفسه بصعوبة ويبذل جهداً نفسياً جباراً

كى لايعتليها بدلاً من تقليد حركات يديها ورأسها وهى منحنية ، لكنه بدا عاقلاً متزناً لأول مرة فى حياته حيث ثبت نفسه على وضع العجين ، الذى أداه بظرف حتى أمره «شرشر» بالرجوع مرة أخرى الى وضعه الطبيعى ، فقالت المرأة بسعادة بالغة :

– والنبى لذيذ ودمه خفيف ، اعرضه على السيرك ياشرشر ، لأنهم ممكن يشتروه منك بسعر معقول جداً .

أخرجت الزوجة من صدر جلبابها اصبعا من الموز قذفت بقطعة منه لزقزوق فتلقفه غير مصدق ، لأنه لم يذق الموز منذ أن جيء به لهذا المكان ، وبات واضحاً بعد ذلك أن الدور اقترب من القردين الآخرين لأن «شرشر» أعاد «زقزوق» وربطه فى مكانه الأول ، بينما أخذت عيناه تتفحصان كلاً منهما ، لكنه ولسبب ما سحب «مرزوق» أولاً :

كرر «مرزوق» حركات زميله السابق لكن دون خفة ومهارة واضحة ، ربما لكبر سنه أو قلة حيلته ، لذلك علقت الزوجة بفتور على أدائه قائلة :

– خليه ياشرشر ، تسرح به ، أو تبيعه لأى واحد من العيال السرّيحة.

ويبدو أن «شرشر» كان قد قرر ذلك قبلها لأنه هز رأسه ولم يقل شيئاً .

ثم جاء دور «معتوق» . سحب «شرشر» معتوق إلى وسط الحجرة فسار القرد فى تباطؤ ودون انصياع واضح . زر «شرشر» عينيه الضيقتين فى ضيق وصاح بعنف .

– نوم العازب .

حرك «معتوق » ساكناً صغيراً ، أرنبة أنفه ، التى اتسعت لتدخل مزيداً من الهواء إلى صدره . أعاد القرداتى نداءه منذراً مرة أخرى :

– نوم العازب بسرعة .

«معتوق » لم يرد أيضا .

اغتاظ «شرشر» فكحّ وهرش رأسه وغيرّ النداء .

– طيب ياوسخ .. عجين الفلاحة .

ثبت « شرشر » عينيه فى عينى القرد ، اللتين بدتا ثابتتين وهادئتين تماما ثم قال :

– إسمع .. اتعدل أحسن لك ، وإياك تطلّع روحى ، يا الله ياحلو ، عجين الفلاحة ، عشان تأخذ موزة .

لكن «معتوق » الذى لم يكن حلواً بأى معيار من المعايير، جلس القرفصاء مظهراً عورته وراح يعبث بأصابعه فى قدمه .

تجمعت غيوم الغضب فى وجه «شرشر» منذرة بقدوم العاصفة وارتفع حاجباه بالدهشة والاستنكار وتمددت شفته السفلى الرقيقة معلنة عن عنف وشيك ، ثم أنه رفع عصاه عالياً محاولاً تسديد ضربة لمؤخرة «معتوق» .

كان غضب أشد قد تجمع فى صدر «معتوق» ، ليس فى هذه اللحظات فقط ، ولكن منذ لحظة قتل الماعزة وهدر دمها فى الأرض ، لذلك وبهدوء، رفع يديه ناشباً أظافره وأسنانه فى جسد «شرشر» الذى ألجمته المفاجأة ، فأخذ يقاوم ويبعده عنه ، بينما «معتوق» يأرمه أرماً بكل غضبه المكبوت ، وحلمه الدفين فى العودة إلى عالمه الفسيح المترامى ، حيث المحيط الأزرق والغابة الممتدة الخضراء وعالم الطيور السحرى .

ويقال إنه فى اليوم التالى لتلك الحادثة الغريبة كان «شرشر» فى المستشفى و «زقزوق» فى السيرك و «مرزوق» يجوب الطرقات يتسول طعامه مع قرداتى آخر، أما «معتوق » فقد أعادوه مرة أخرى الى الجبلاية لأنه غير قابل للترويض ، ويقال أيضاً إنه كان يمضى وقته محادثاً صغار القرود ، عن روعة وجمال الغابة ، التى لم يروها أبداً لأنهم ولدوا فى عالم ملىء بالصخور .

الليل يلونه العسكري

فتح التربى باب حوش المقبرة ، أطل من فرجة الباب برأسه الذى كان ملقى ككرة ضخمة ناعسة على السرير منذ قليل ، فرك عينيه ليرى من دق بابه فى ذلك الوقت الليلى المتأخر ، ثم قال :

- نعم .

- لامؤاخذة فى الإزعاج ، حالة وفاة .

ردت عليه واحدة من ست بنات رأهن واقفات أمامه ، قبالة باب المقبرة ، فتح عينيه بدهشة ، وشعر بخيالية المشهد ، ثم أعلن - مستغرباً- استحالة الدفن فى هذه الساعة المتأخرة من الليل ، وأكد ذلك، برفع كم جلبابه الواسع والنظر فى ساعة يده ، فوجد الزمن قد تجاوز الثالثة والنصف صباحاً ، فقال مرة أخرى بغيظ :

- معقول .. دفن فى عز الليل ؟! هل الدنيا طارت ؟! .

كلها ساعة زمن ونور ربنا يطلع ، والنفر يقدر يقول يافتاح ياعليم .

قالت بنت من الواقفات بضيق :

- مستحيل الانتظار ، لازم ندفنه حالاً ، فى التو .

عاود التربى فرك عينيه مرة أخرى ، وتثاءب بما يكفى للانتباه جيداً ، لاحظ أن التى حدثته لاترتدى ملابس الحداد السوداء ، فجال بنظراته عليهن جميعاً ، فتميزت أمامه على ضوء مصباح الطريق الخافت ، ألوان ثيابهن

الملونة المنقوشة ، اكتشف الرجل أيضاً وجوههن المطلية بما تتجمل به النساء ، وشعورهن المنسقة ، وبدين له فى هيئتهن العامة ، كما لو كن ذاهبات إلى حفل ، وعندما اقتحمته رائحة العطر النسوى الفائحة منهن ، اهتزت مشاعره قليلاً ، وخرج صوته ضعيفاً متسائلاً :

- جماعة نسوان بس ، والدنيا هس هس فى عز الليل ؟! .

ضحكت إحداهن ضحكة خشنة ممطوطة دفعت برعدة سرت فى جسد التربى ، ودفعت قلبه للدق بعنف، إذ أن الرجل بدأ الشك فى وقوفه أمام بشريات من الإنس ، وداخله شعور مرعب بوقوفه أمام أشباح أو عفاريت من عفاريت الترب ، الذين طالما سمع عنهم من الناس ، ولكنه لم يرهم قبل الآن أبداً ، فكر فى الصراخ والاستغاثة بأى من جيرانه سكان المقابر ، لكن صاحبة الضحكة الممطوطة ، لم تمهله ليصرخ إذ قالت :

- نعم ، كلنا بنات ، وأبونا حَرمَه ربنا من الصبيان ، قطيعة تقطعهم كلهم من على ظهر الدنيا .

سأل التربى :

- يعنى الجميع بناته ؟! .

- للأسف . ، ردت واحدة .

لم يصدق التربى الكلام ، فمن غير المعقول أن تلكم الواقفات أمامه ، بنات رجل متوف ، لم يوار التراب جسده بعد ، فلا مسحة حزن واحده على وجه أى منهن ، لادموع ، لابكاء وعويل مثلما يحدث عادة فى مثل هذه الحالات ، ثم ماهذه الملابس الملونة ، والوجوه المصبوغة ، والضحكة الوقحة التى سمعها منذ قليل . حار التربى فيما هو فاعل ، وكان السؤال الذى مازال ملحاً عليه هو : هل مايراه بعينيه فى هذه اللحظات حقيقياً ؟ . أم أن مايراه شىء خيالى، أشبه بالكابوس ؟ ، أو ربما بالمزحة الثقيلة التى يسمع عنها فى الحكايات عندما تهذر العفاريت أحيانا مع بنى البشر . فرك التربى

عينيه مرة أخرى ، ومسد شعره بيده فى توتر ، ربما ليتأكد من واقعية وجوده ، ومايدور أمامه ، وأنه ليس استمراراً للحلم الذى كان يحلمه منذ قليل وأفاق منه على دق الباب ، إذ كان يرى فيما يرى النائم ، أن ممثلة فاتنة، رآها قبل أن ينام فى مسلسل التلفزيون ، خرجت إليه من أكفان الموتى ، وراحت تأخذه فى أحضانها ، وهو لايصدق نفسه ، ولا يدرى على وجه الدقة ، أيُسَرّ لوجوده بين أحضانها أو يصرخ كلما وقعت عيناه على كفنها . لكن التربى لما تيقن من وجود شعره ، وخرق أذنيه صوت جرو جاره العجوز ، الذى يشبه صوت بكاء الرضع ، تماسك واستعاذ بالله من الشيطان الرجيم ثم قال :

– طيب ... أشوف شهادة الوفاة أولاً .

كان قد بدأ يفكر فى احتمالات لجريمة ، وإلا لماذا تأتى هؤلاء البنات لدفن أبيهن فى مثل هذه الساعة المتأخرة من الليل ، وفكر أيضا ، فى احتمال أن تكون شهادة الوفاة مزورة ، أو وجود سرّ قد يعرضه للمساءلة القانونية. أخرجت فتاة قصيرة تضع نظارة طبية على عينيها ، ورقة من حقيبة . يدها وناولتها للتربى ، الذى بدأ يقرأها بدقة ، كانت صادرة من مكتب الصحة بالحى القريب من الترب ، بتاريخ اليوم المنصرم ، ومدون بها اسم الميت وتاريخ الوفاة وأسبابها ، تمعن التربى فى توقيع طبيب الصحة ، ورئيس المكتب والختم الجمهورى ، ورغم أن النسر المجنح ، كان قد استقر براحته كاملاً على الإمضاءات ، إلا أن التربى لم يطمئن قلبه ، وزاد الشك بداخله أكثر فقال :

– المفروض أن الوفاة تمت الصبح ، يعنى الوقت كان يسمح بحضوركم وقت العصر أو المغرب ، حاجة غريبة ... الانتظار لبعد دخول الليل .

قالت واحدة ، بدت وكأنها أكبر البنات بتأفف وضيق :

– مسألة توقيت الدفن تخصنا أولاً وأخيراً، المطلوب أن تشوف شغلك، وتحصل أتعابك وخلاص .

اغتاظ التربى ، وأيقن أنه لم يعد قادراً على فهم أى شىء ، فقال بعصبية.

– مستحيل أقوم بالدفن فى حصة ليل متأخرة ، الصباح رباح .

هددته الكبيرة بأنهن سوف يتركن له الجثة . فى ساحة المقبرة ويذهبن؛ وبالفعل أشارت بيدها لأخواتها فذهبن جميعاً نحو الباب الخارجى للمقبرة ، وحملن النعش من فوق عربة كارو ، وجئن به ليضعنه أمام أقدام التربى ، الذى طلب منهن غاضباً فتح النعش ليرى مابداخله ، كان يتوقع اكتشاف آثار تدل على جريمة ، أو أية علامة تؤكد أن الوفاة ليست طبيعة ، فلما وجد أمامه ميتاً ، يرقد فى أكفانه أربعة وعشرين قيراطاً، صرخ قائلاً :

– عموماً .. مستحيل الدفن الآن ، وأفضل تبليغ الحكومة .

قالت ذات النظارات بهدوء :

– بلغ البوليس ، واعمل مابدا لك .

دخل التربى مسرعاً إلى بيته الذى هو فى الأصل حجرتان واسعتان داخل حوش المقبرة ، الهدف منهما استقبال أهل المتوفى ، وعندما اتصل بقسم الشرطة ، وشرح للمناوب الليلى المشكلة ، رد عليه الآخر ببرود ، ودون أدنى حماس قائلاً إنه لايستطيع فعل شىء إزاء هذه المشكلة ، إذ أنه لاتوجد جريمة قتل ، وطالما أن شهادة الوفاة سليمة ، وموقعة ، ومختومة ، فليدفنه ويتكل على الله ، ثم أنه سأل التربى : هل هناك آثار دماء أو كدمات فى الجثة ، أو آثار اختناق ؟ ، فلما نفى التربى كل ذلك ، وضع المناوب سماعة الهاتف ، وألقى برأسه مرة أخرى على مكتبه لينام .

عاد التربى من جديد إلى النعش والبنات ، وأعلن بحزم أنه لن يقوم بالدفن بأية حال من الأحوال ، إلا إذا عرف السبب الذى دفعهن لدفنه فى

ذلك الوقت الغريب ، ثم أضاف قائلاً إنه لن يخضع للتهديد ، وأن البنات لن يستطعن الذهاب دون إعطائهن مايثبت قيامه بالدفن ، وإلا تعرضن للمساءلة القانونية ، فلما وجدت البنات أن فكرته معقوله ، وأنه مصر على موقفه ، قالت واحدة منهن :

– إسمع ياعم ، أبونا مات موتة ربنا ، فاطمئن من ناحية الوفاة ، لكن المسألة يصعب شرحها لك الآن ، لأن الموضوع كبير، ولو حكينا لك سبب الحكاية ، لاحتجنا لأيام طويلة .. إدفن واتكل على الله .

أضافت الكبيرة لتريحه وتطمئنه :

– باختصار .. كلنا انتظرنا من زمان لحظة موته ، لأن كرهنا له ، أكبر من كرهنا للعمى ذاته، الله يجحمه مطرح مايروح . اشمأز التربى من كلماتها ، فلا يجوز على الميت إلا الرحمة مهما كان فعله أو جرمه فى الحياة الدينا ، فما بالك أن هذا الراقد فى أكفانه أبوهن .

ضرب التربى كفا بكف وقال متأففا :

– لاحول ولاقوة إلا بالله .. أعوذ بالله منك ياشيخة ..

استغفر الله العظيم ، ربنا يتوب عليك ويرحمك برحمته .

قالت الصغرى :

– اياك تظن أننا عديمات الرحمة ، أو بدون مشاعر وأننا نفترى عليها ، والله أبداً لكنه كان معذبنا ، ومطلع أرواحنا فى الصبح والليل ، بالإسم أب ، أما بالفعل والحقيقة ؟ .

– ياساتر يارب ! . كان عنده شغل معين ؟! سأل التربى

قالت أم نظارات :

– عسكرى ياسيدى ، وخلانا نشوف النجوم فى عز النهار ، قتلنا بالحياة، وبعد موت أمنا أصبحنا ستة بنات لاحول ولاقوة لنا ، نعيش على فيض الكريم لأنه باع أرضها ، وأخذ فلوسها كلها، وكان دائم التقتير علينا،

وحرمنا من التعليم ، ومن كل شيئ جميل فى الدنيا كما بقية الخلق ، يعنى حكايتنا طويلة ، ومصيبتنا ماوردت على إنسان أبداً .

حوقل التربى ، وفكر أن البنات ربما كن مبالغات بعض الشي ، أو أنهن يكذبن لسبب لا يدريه ، لكن ماكانت تطفح به وجوههن من أسى ، ومافاضت به أصواتهن من مرارة ، جعله يشعر بصدقهن فقال :

– طيب ، كل واحدة توحد الله وتهدّى أعصابها ، لكن ياجماعة كان من الممكن أن يتوسط إنسان ويتكلم معه ، أى واحد عاقل من أهله أو أصحابه ، له كلمة عليه ، فيغير معاملته ، ويرق قلبه .

أعلنت الصغرى ساخرة .

– جدى كان أخرى منه ، لأنه عسكرى هو الأخر ، وكذلك عمى .

استأنفت الكبرى الشكوى :

– كان ملجمنا كما الحيوانات ، مستحيل أية واحدة منا تقول رأيها ، وفى مرة من المرات صرخت فيه أختى الوسطانية وقالت له حرام عليك حياتنا فى المرار طوال الوقت ، وعاوزة أعيش كما الخلق ، أتعلم ، أخرج للدنيا ، تصور ياعم ياتربى : ضربها علقة وقور لها عينها .

– المشكلة أننا وصلنا لمرحلة مستحيلة خلاص ، امتنعنا عن فتح حنكنا بأية كلمة ، تعلمنا الكذب والنفاق ، وأصبحنا كما المخصيين .

قالت الصغرى بمرارة :

– بدون تشبيه ، لأنه ختن كل واحدة منا فعلا .

شعر التربى بالحرج ، لأنه كان مدركا انقضاء الزمن ، الذى كانت تختن فيه البنات ، شعر بضيق ، وبشفقة لا حد لها على هؤلاء البنات ، لكن السؤال الأول ، كان مايزال ملحا فى رأسه ، لماذ يرغبن فى دفنه خلال هذا الوقت المتأخر من الليل .

قالت له الكبرى ، إنهن رغبن فى حرمانه من نعمة تشييعه وإيصاله لمقره

الأخير معززا مكرما كبقية الناس وقالت له الوسطى ، أن من حرمهن من نعمة الشمس ، لايستحق الدفن تحت الشمس ، ثم أخبرن التربى ، أنهن صنعن حلوى بعد موته ، واحتفلن بهذه المناسبة ، فذهبن الى مزين النساء ، وارتدين أجمل مالديهن من ثياب ، فسرقهن الوقت وجئن متأخرات جدا ، وليس فى بداية المساء ، كما أخبرنه بنيتهن تحطيم صوره المعلقة على الجدران وحرق بزته العسكرية ، عندما ينتهين من الدفن ويعدن للبيت ، وأنهن أقسمن ألا يذكرنه طوال حياتهن بعد ذلك .

لم يكن التربى من ذلك النوع البشرى المحب للتشفى فى بلايا الناس، ربما بسبب كونه تربيا لاأكثر ولاأقل ، لذلك لم تداخله المتعة المعتادة لدى غيره عند الوقوف على مآسى الأخرين ، الأكثر من ذلك، شعوره بشفقة وتعاطف صادق تجاه هؤلاء الولايا الواقفات أمامه، وسرعان ماتحول التعاطف الى رغبة حقيقية لديه فى مساعدة البنات ، وعمل شيئ لأجلهن، ولما لم يدر كيف ، لأن رأسه فى الحقيقة ، رغم احتوائه على مخ، لايختلف كثيرا عن أية جمجمة خاوية يمكن العثور عليها أحيانا فى منطقة الترب ، اضافة الى أن نداء السبات كان مايزال يناديه بشدة ، لذلك تنهد التربى ، وبدأ كمن أسقط فى يده ، فقال أخيرا :

– خلاص .. بمشيئة الله أدفن الجثة .

شمر التربى عن أكمامه، وقال أنه سيذهب لاستدعاء مساعده من البيت المجاور ، ليعاونه فى فتح المقبرة ، والقيام بعملية الدفن ، لكن ما أن بدأ بالمسير ، حتى برز رجل فى الطريق ، يرتدى زيا عسكريا ، ويسير فى صلف ، وراح يتقدم من التربى والبنات اللواتى بمجرد أن تبيّن ملامحة عند اقترابة منهن صرخن فى صوت واحد :

– عمى ! .

لم يرد الرجل عليهن ، بل راح يكيل لهن الشتائم والسباب ، ناعتا إياهن بأقذع الألفاظ ، متوعدا بالويل والثبور وفظائع الأمور .

انهارت البنات ، ورحن يبكين بحرقة الإحباط واليأس ، فلما أتاح الغل والشر فرصة للصوت قليلا ، قال العم العسكرى :

- من هنا وطالع ، أنا المسؤول ، أنا الوصى ، وكل شيئ ماشيى كما الأول.. مفهوم ؟ .

قال ذلك ونظراته المتوعدة المهددة ، تنغرز فى وجه كل واحدة منهن .

كان الخوف والرعب على وجوه البنات أولا ، ثم كانت الكراهية والازدراء ثانيا ، وأخيرا نفرت عروقهن بدماء الغضب والحقد ، وكل ذلك المختزن بداخلهن من غل وغيظ ، سمما حياتهن طوال سنوات طويلة ، وبات الخوف من العودة الى الماضى ، أقوى من التفكير فى أى مستقبل ، وفى لحظات هجمن جميعا على ذلك الماضى الحى المتجسد أمامهن ، وأوسعنه ضربا ولكما ، وهو يقاوم بكل أساليبه العسكرية دون جدوى ، وسرعان ماجرى التربى الى بيته مرة أخرى ، ليتصل بالبوليس ويقول للمناوب :

- أظن إنك لازم تحضر بسرعة ، فى الحال والتو .

وكان نهار آخر قد بدأ يطلع فى هذه الأثناء .

البداية

قاطعت دقات الساعة تأوهات المغنية ، التى كان صوتها يلعلع من الراديو وهى تقول :

– حبيبى ياعسل .

مع الدقة الأخيرة قالت لنفسها وهى تفتح علبة مربى المشمش بعد أن نجحت فى العثور على فتاحة العلب ، التى كان زوجها قد تركها بغرفة المكتب منذ يومين ، بعد أن فتح علبة كرز مستوردة .

– ياه .. بسرعة أصبحت الساعة الواحدة .

لذلك، عجلت بإخراج الكعكة من الفرن لتبرد ، ثم راحت تغسل ماتبقى من أوعية وأطباق فى الحوض ، لكنها تذكرت أثناء ذلك أنها لم تضع ملحاً لصينية الخضروات ، التى ماتزال فى الفرن ، فتوقفت عن غسيل الصحون ، وجففت يديها وسحبت الصينية بسرعة لتضع فيها الملح ، لسعت الصينية الملتهبة يدها لأنها لم تلبس القفاز الواقى من الحرارة ، لم تهتم بالاحمرار الناتج عن ذلك فى باطن كفها ، وكانت تفكر فى وجوب غسل حوض الحمام عندما تفرغ من الطهى تماماً . أعادت خضروات الفرن إلى مطرحها ، وجرت إلى غرفة الصالون لتنظف الزهور البلاستيكية الموضوعة فى المزهرية، وبدأت تزيل الأتربة المترسبة عليها بالمنفضة المصنوعة من ريش البط ، سقطت منها واحدة ، وعندما مالت بجسدها لتلتقطها شعرت بأن وسطها

سينفصل عن بقية جسدها لشدة الألم، والإرهاق، تنبهت إلى صوت المغنية، التى كانت قد وصلت فى غنائها إلى حد التمنى لأن تكون وحبيبها فى عش الزوجية السعيد ، جزت بضيق الى المذياع ، لتسكته ، وفكرت أن ترمى بجسدها على الكرسى الأسيوطى الموجود الى جواره . لكنها قالت لنفسها :

- خلصى كل شىء الأول ، لأنه لو حل التعب عليك وأنت قاعدة مستحيل تقدرى تقومى . وفعلاً .. ، دفعت بطاقة جديدة من عزيمتها إلى أعضائها المنهكة ، وأخذت تدلك يديها بالماء، المنساب من الصنبور بينما هى تملأ وعاء مسح الأرضية ، وما كادت تبدأ فى مسح الأرض حتى سمعت صرير باب الشقة ثم خطوات زوجها المقتربة فاستدارت لترسم ابتسامة ملائمة على وجهها ، الذى تهدل شعرها عليه ، وحيته فى ودّ.

- أهلاً .

خلع نظارته الطبية بيد ، ورفع سبابة يده الأخرى ، التى تجمع عليها غبار خفيف ، وقال مستنكراً .

- بنورة التلفزيون كلها تراب .

تقدم إلى داخل المطبخ وكشف أغطية أوانى الطعام ، فقالت له أنها على وشك الانتهاء من الطهى ، تأملها وهى تحاول لمّ شعرها المتهدل وإمساكه بمشبك شعر كبير بينما رائحة الطبيخ تفوح منها ، ارتسمت فى مخيلته صورة طالبة فى السنة الرابعة بثوبها الأزرق الفاتح وعطرها الذى يعلن عنها قبل خطواتها عندما جاءته لتقول له :

- هل صحيح أنك الغيث الباب الرابع يادكتور ؟ .

وقع كلماتها فى أذنه موسيقى ، مثلما مشيتها وهى تبتعد وكعب حذائها العالى الرفيع يعزف فى أذنه : تك .. تك .. صول .. مى ...تك .... تك .

لم يحتمل رائحة البهارات النفاذة المتصاعدة من الطبيخ فأسرع بالخروج من المطبخ ، سارعت خلفه ، بينما أخذت تحكى له عن الجهد الذى بذلته مع

رئيسها في العمل حتى سمح لها بالخروج مبكرة عن موعد الانتهاء الرسمى ساعتين ، فأتت بسرعة إلى البيت لتنجز كل شيء بعد أن اشترت من السوق كل مستلزمات الغداء ، ثم رفعت ساعدها، وحركته عدة مرات في الهواء وهى تقول :

– شلت عشرة كيلوات تقريباً وأنا راجعة لدرجة أن كتفى كأنه ساقط منى .

نظر إليها وأقنع نفسه مرة أخرى أن قامتها أقصر مما يجب ، وبدلاً من الانتباه إلى ماقالته بأنها بذلت أقصى ماتستطيع ليخرج طهيها متقناً وترفع رأسه أمام رئيس القسم ، أتى صوت من داخله وملأ أذنيه ، لم يكن إلا : تك ... تك .. صول ... مى .. تك .. تك .

لذلك رد عليها فى فتور .

– شاطرة .. براڤو ، لكن جهزى لى الهدوم . لأنى محتاج لحمام بسرعة قبل مايطب الرجل .

– حمام ؟! ، قالت مستنكرة ثم أردفت !

– لا .. أنا عاوزة آخذ حمام الأول ، لأن شعرى يحتاج لوقت طويل حتى ينشف .

شعرت بالغيظ أيضاً لأنها لاتحتاج الحمام أولاً بسبب شعرها فقط ولكن لتريح جسدها المنهك أيضاً . وتزيل عنه روائح الطبيخ ، فهى منذ السادسة صباحاً لم تسترح قط فلقد صارعت حتي ركبت الأوتوبيس لتصل عملها فى الموعد المحدد ، وخرجت من العمل إلى السوق رأساً لتعود بحملها الثقيل الى المطبخ ، وهاهى الساعة قد تجاوزت الواحدة ولم تفرغ من عملها المنزلى بعد، تمنت رفع قدميها المنتفختين قليلاً، بسبب طول الوقوف وإغماض عينيها لفترة من الوقت، لكنها حدقت ملياً فى الأرض لتطل فى مخيلتها صورة صديقتها القديمة التى قابلتها فى الطريق صدفة منذ عدة أيام ، وكانت

تسير ممشوقة القوام ، مرتدية بنطالاً أبيض بدت فيه وكأنها فتاة فى العشرين من عمرها رغم أنها مثلها . جاوزت الثلاثين بسنوات، وظلت ضحكة الصديقة القديمة تتردد وهى تقف محدقة، تلك الضحكة العذبة النابعة من البال المستريح ، بينما كانت تقول لها مداعبة:

– أنت يامنى محتاجة تعملى اضراب عن الطعام لمدة سنة حتى يرجع عودك حلواً ورشيقاً، وترجع لك الأيام الخوالى .

شعرت لحظتها بحزن ، بسبب الأيام الخوالى حيث كانت فى بداية شبابها أجمل وأرشق بنت فى الحى الذى تسكن فيه مع أهلها ، ولكنها تزوجت ودخلت فى دوامة جهنمية ، من الحياة الزوجية التى جعلت جسدها يتفلطح تفلطح جسد سمكة بلطية ضخمة ، رغم أنهاشعرت بضيق من كلام صديقتها لأنها قالت الحقيقة لكنها حاولت اخفاء ذلك ، فقالت لها فى زهو أن زوجها حصل على شهادة الدكتوراه ، وأصبح استاذاً فى الجامعة ، إلا أن صديقتها لم تحفل بذلك ، بل راحت تحدثها عن طفلتها الجميلة ، وشقتها الصغيرة الضيقة التى تملكتها بصعوبة لكنها تسعى دوماً لأن تكون جميلة ، ثم عن رغبتها فى مواصلة دراستها العليا مرة أخرى .

عادت من غيبتها مع نفسها على صوت زوجها الغاضب وهو يصرخ.

– نسيتِ ياهانم تكوى القميص الرمادى وأنا عاوز ألبسه على الغداء.

– هه .. والله نسيت فى زحمة الشغل ، اكويه انت حتى انتهى من الحمام .

استشاط غضباً، سبها واتهمها بالإهمال والغباء فاشتعلت غيظاً واتهمته بانعدام الإحساس وقلة الذوق ، وأضافت فى انهيار مجنون :

– والله ماعندك دم .

كالعادة ، انتفض من مكانه حيث كان مستلقياً على السرير وهجم عليها بينما كانت واقفة على باب الحجرة بعد أن جاءت من المطبخ ، لطمها على

وجهها بقسوة ، شعرت بخبط فى رأسها وقول صديقتها الساخر بضرورة الإضراب عن الطعام لمدة سنة .

لم تبك مثلما كانت تفعل فى كل مرة يحدث فيها ذلك، ولم تسحب نفسها لتنزوى فى ركن من أركان البيت حتى تنوح براحتها وتتورم عيناها من شدة البكاء ، ليأتى هو بعد ذلك فيربت علي ظهرها ويمسح شعرها ، ويقول : آسف ، ثم يأخذها بين أحضانه مقسماً على حبه لها ولينتهى الأمر بالصلح وهو فوقها ، ثم ليدعوها بعد ذلك ، مع أخيها وزوجته إلى السينما ، أو إلى كازينو على النيل لتنشغل بالحديث مع زوجة أخيها عن الأقمشة والأحذية طوال الوقت ، بينما يتحدث هو مع أخيها عن الكرة والاستيراد والتصدير ، فى الوقت الذى تطير فيه عيونهما الذكورية الوقحة وراء كل امرأة عابرة ، تعريها من ثيابها وتتفحصها .. موضعاً ، حتى أكثر أماكن الجسد خصوصية وخفاء .

لا لم تفعل مثلما كانت تفعل فى السابق دائماً فقد كانت مرهقة متعبة، بلغ السيل بها الزبى ، كما كانت صورة صديقتها فى بنطالها الأبيض المحبوك على جسدها الرشيق تتراقص فى مخيلتها كمهر جامح، وايقاع كلماتهاالموحية يعزف لحنه الساخر فى اذنيها ، .ظل اللحن يتردد ، يتكرر ، يعاود نفسه بجنون ، وبعدها جاءت .. طاخ ، لم تأت إلى أذنيها ، لكنها جاءت الى رأسه حيث قذفته بتمثال أفروديت الرخامى الموضوع على تسريحة زينتها ، وهو التمثال الذى كان أقرب ماطالته يدها من أشياء .

وقعت أفروديت الجميلة على الأرض ، لامهشمة الذراعين فقط ، ولكن مهشمة الرأس والجسد أيضاً بعدما أصابت الزوج ، الذى طار صوابه فهاجم امرأته كوحش جريح ، جذبها من شعرها ، بعنف ، أرقدها على الأرض ولكمها على ظهرها بقبضة يده الغليظة ، فاستجمعت هى كبت خمس سنوات زواج عاشتها معه ، وأنشبت أظافرها فى فخذه . الذى طالته،

شتمته وشتمت جدود جدوده أيضاً ، ابتعد قليلاً متحاملاً على نفسه من الألم، لكنه عاد وضربها مرة أخرى ، امتدت يداه محاولة الاطباق على رقبتها ، لكنها عاجلته كنمرة جريحة بضربة من قبضتها على أنفه المكور فى مقدمة وجهه ، كانت الضربة كافية لأن يبرز خطان دقيقان من الدم الأحمر ، رسما شريطين أسفل أنفه ، لهث وهو يتذوق الطعم الملحى للسائل اللزج المنساب على شفتيه، انهار . وانكفأ على تمثال أفروديت الجميلة وهو يبكى.

وبُهتت هى لرؤيته على هذا النحو ، فلأول مرة فى حياتها تراه يبكى ، لم تكن تظن أنه من الممكن أن يبكى أبداً ، همدت ثورتها ، شعرت بالقرف ، وبرغبتها فى التقيؤ ، وبدا لها فى ذلك الوضع مثلما يكون أثناء مضاجعتها زاد حقدها عليه لأنها تذكرت أنه عندما ينال لذته منها يدير ظهره لها ويشعل سيجارة يلتهم دخانها بتلذذ ، ثم ينكفئ على وجهه مرة أخرى لينام ويملو شخيره .

عاد الصوت يتسارع فى أذنيها بكلمات صديقتها الساخرة ، تأملت صورة زفافها المثبتة على الحائط فوق السرير ، دارت عيناها بسرعة على قطع الأثاث الضخمة ذات اللون الداكن التى اختارها أبوه وأمها وأختها الكبيرة ، شعرت أنها تتضخم أكثر وتقتم أكثر ، بل وتضغط على أنفاسها حتى أصبحت لاتقوى على الحركة .

جرت خارجة من حجرة النوم ، خلعت خفها المنزلى الخفيف ، سحبت حذاءها من دولاب الأحذية بالمدخل ، حررت شعرها من مشبكة واتجهت إلى باب الشقة فى هدوء ، فتحته وخرجت لتصفقه بعنف ، امتزج صوته بصوت دقات الساعة التى كانت تعلن انتهاء ساعة أخرى .

النوم على الجانب الأيمن

بعد أربعين يوماً من ولادة ابنها البكر ، عاودت فاطمة عملها ، الذى كانت قد بدأته من سبع سنين بمنزل السيدة صوفى بعد أن استقرت فى خدمة هذه السيدة دون سواها ، لأنها طيبة بشوش . لم تكشر فى وجهها مرة واحدة طوال فترة خدمتها لديها ، حتى فى ذلك اليوم الذى سكبت فيه طاجن الخضار الساخن على الأرض غصباً عنها ، بينما كانت تخرجه من الفرن فلسعتها الحرارة مما جعلها لاتقوى على الإمساك به جيداً ، فى ذلك اليوم اكتفت صوفى بالابتسام والسخرية ، وحمدت الله أن الواقعة لم تقع فى وقت دعوة ضيوف إلى الطعام، ثم أن صوفى حنون ، شفيقة ، مما دفع فاطمة لأن تفتح لها قلبها وتحكى لها عن همومها ومشاكلها مع زوجها ، التى بدأت حتى قبل أن يتزوجا بزمن طويل ، وانتهت بهجره لها فى الشهر السادس من حملها ، دون أن تعرف له طريقاً ، وكانت تكتفى عندما يسألها الناس بالرد قائلة «ياعالم .. هو حى أو ميت !! » .

ورغم أن فاطمة كانت ماتزال منهكة ، مهدودة الجسد والحيل، وتفصح صفرة وجهها ، وهالات زرقاء حول عينيها عما كابدته طوال شهور الحمل والولادة من مشقة وضعف ، إلا أنها راحت تعمل بجد وحماس ، خشية أن تظن صوفى أنها لم تعد قادرة على القيام بأعباء عملها بعد الإنجاب ، فتفكر فى استبدالها بواحدة أخرى ، وتفقد المصدر الوحيد لقوتها، غير أن ذلك لم

يمنع من كونها عصبية ، قلقة وهى تصارع الوقت كى تنتهى من عملها بسرعة لتعود إلى رضيعها الذى تتركه مضطرة مع جارة لها حتى تنتهى من شغلها وتعود إليه ، وإن كانت قد أمنّت له رضعات من ماء الأرز المغلى ، لترضعه هذه الجارة إياها بين الحين والحين ، إضافة إلى إلقامه ثديها باعتبارها هى الأخرى مرضع منذ ثمانية أشهر بعد أن وضعت طفلها الثالث، ومع أن فاطمة كانت مطمئنة لهذه الجارة واثقة بها من ناحية حرصها على صغيرها ، لكونها بنت حلال وأميرة جداً ، وقفت جانبها من ساعة دَبّ ، الطلق فيها وحتى وقت ظهور رأس العيل من رحمها فسحبته ، وقطعت الخلاص وحممت المولود وقمطته ثم وضعته إلى جوارها .

كانت قوة هائلة تتفجر داخل فاطمة تدفعها لأن تكنس وتنظف بسرعة لتعود إلى وليدها الذى هو الوردة الوحيدة المشرقة فى سواد لياليها المظلمة، التى عاشتها منذ أن تركها زوجها وغاب ، وكانت صورته وحركاته الضعيفة العاجزة ، تملأ روحها بالشوق إليه ، وهى تمسح الغبار عن صفوف الكتب المتراصة على الأرفف بغرفة المكتب ، وقد جلست صوفى بعيداً عنها فى الشرفة تتشمس وتحك أظافرها بمبرد حديدى لتشذبها تمهيداً لطلائها ، بينما كانت تفكر فى فاطمة وظروفها ، إذ كانت تعتبرها أشطر وأطيب شغالة صادفتها منذ أن تزوجت ، إضافة إلى الأهم من ذلك ، وهو أمانتها الشديدة مما جعلها تتمسك بها جداً ، وتحرص على رضاها ، فتقدم لها بين الحين والحين بعضاً من ملابسها القديمة ، أو حذاء تكون قد ملّت استخدامه، وكان هاجس أن تتركها فاطمة واحداً من هواجس صوفى القليلة، باعتبارها امرأة قلما تعرف القلق ، فحياتها ميسورة مريحة ، تسير على وتيرة واحدة تقريباً ، ولعل من أكثر جوانب فاطمة امتيازاً بنظر صوفى هو أن فاطمة كانت لاترتدى جلابية فلاحى سوداء ، ولا تضع قمطة على رأسها ، بل ترتدى دائماً ملابسها على طريقة أهل المدينة ، وكانت صوفى

تحب فى فاطمة مظهرها النظيف وشعرها المرتب ، المعقوص إلى الخلف ، وميلها الدائم للتمدن ، إذ كانت تسألها عن بعض الطبخات ، الايطالية ، التى تصنعها صوفى بمهارة ، كما كانت لاتأكل بشراهة، مثل معظم الشغالات اللاتى صادفتهن فى حياتها ، لذلك ظلت صوفى تفكر فى تقديم شىء مفيد لفاطمة ، يساعدها على تربية طفلها ،اضافة للنصائح التى قدمتها لها بخصوص ذلك منذ أن جاءت إليها عند الصباح ، وبينما هى تحك أظافرها بالمبرد ، عبرت برأسها فكرة ، جعلتها تجول بنظراتها فى أرفف المكتبة ، وتهز نفسها هزات خفيفة بالكرسى الهزاز الجالسة عليه ، ثم تسأل فاطمة قائلة :

– أظن انك رحت مدرسة ، وعارفة الكتابة يافاطمة ..

– معرفة بسيطة يامدام .

ردّت فاطمة ، متابعة نفض الغبار عن الكتب .

استفسرت صوفى عن ذلك أكثر فقالت :

– يعنى يمكنك تمييز الحروف ، وفك الخطّ .

احتارت فاطمة من السؤال ، فرفعت حاجبها الأيسر قليلاً، محاولة اكتشاف الهدف منه ثم أجابت .

– أقدر أشوف الجرنال ، وأعرف كتابة اسمى ، واسم والدى ، وجدى.

ابتسمت صوفى، ونظراتها منصبة على أظافرها ، وقالت لفاطمة إنها ستعطيها كتاباً عن صحة الأم ورعاية الطفل سيكون مفيداً جداً بالنسبة لها، لأنها لأول مرة تخلّف وليس عندها أية فكرة عن تربية الأطفال . تابعت فاطمة نفض الغبار عن الكتب بسرور لأن صوفى لاتدخر وسعاً فى إبراز اهتمامها بالطفل ، فمنذ أن دخلت البيت فى الصباح ، وسؤال صوفى لاينتهى عن صحة المولود ، وطريقة ارضاعه وإطعامه ، ثم أنها وعدت فاطمة

بالتوسط عند جراح قريب لها ، ليختنه فى عيادته مجاناً عندما يتم ثلاثة أشهر من عمره .

لم تمنع ثرثرة صوفى مع فاطمة عن الطفل سرحانها بذكرياتها بعيداً مع الكتاب الذى ستعطيه لفاطمة ، إذ كانت قد أهدتها إياه ، صديقة عزيزة لها، بعد أن أنجبت ابنتها الأولى. صحيح أن صوفى كانت وستظل إلى الأبد، تكره الكتب وذلك الكم الكبير منها الذى يقتنيه زوجها ، وتقبل رغماً عنها ، احتلاله لحجرة كاملة من حجرات البيت ، لكنها قرأت هذا الكتاب بشغف ، بل اعتبرته أفضل ماقرأت من كتب ، خارج الكتب المدرسية ، بعد كتاب فن الطهى الحديث ، ورغم أن ابنتيها كبرتا كصبيتين مدللتين ، عنيدتين ، تحصّلان دروسهما المدرسية بصعوبة، وتعانى من السيطرة عليهما ، لكن الكتاب الذى سارت على نهجه فى تنشئة طفلتيها ، لم يفقد قيمته لديها أبداً، وبما أن صوفى من النوع البشرى المعادى للقراءة ، باعتبار أن القراءة سلوك غير أنثوى ، وشأن من شؤون الرجل بالأساس ، فهى لم تعرف أن مؤلف الكتاب ، قد صرح أكثر من مرة فى الصحف والمجلات، معتذراً عن كل الأفكار والنصائح الواردة فى كتابه والمتعلقة بالتربية ، إذ أنه لم ينتج عنها إلا جيل جديد ، تعس، ضائع غارق فى المخدرات، وعاجز عن تحمل أية مسؤولية .

قالت صوفى ، وهى تتأمل الأرفف الطويلة الممتدة المليئة بالكتب التى يقتنيها زوجها ، ولا تجد فيها غير آفة تلتهم الفلوس، بينما أخذت تشعل سيجارة وتنفث دخانها الذى تطاير بعضه الى داخل الحجرة ، مما جعل نفس فاطمة تغّم كعادتها من شم الدخان .

– مدى يدك يافاطمة على الرف الأيسر ناحية اليمين ، وهاتى الكتاب البُنى المرسوم على جلدته عيل، المحطوط هناك .

– حاضر .

قالت فاطمة ، واحضرت الكتاب المرسوم على غلافه طفل جميل باسم، يفيض جسده بالصحة والعافية ، وأشارت لها صوفى أن تأخذه وتقرأه، وتحاول أن تطبق كل ماورد فيه من نصائح وتعليمات ، لأنه كتاب ممتاز ، يتابع حالة الطفل ، اسبوعاً بأسبوع ، وشهراً بشهر ، حتى عمر ثلاث سنوات ، فلما بان السرور على وجه فاطمة وعبرَت عن امتنانها لصوفى بسبب الكتاب ، تحمَّست صوفى وتصوَّرت نفسها جالسة فى النادى وسط صديقاتها ، بعد ذلك ، وهى تحكى عن الكتاب الذى أعطته لفاطمة ، مرددة فكرتها الدائمة ، المتعلقة بضرورة أن يساعد كل إنسان متعلم وميسور ، إنساناً آخر ، فقيراً لم تتح له الظروف أن يتعلم ، وهكذا تصلُح حال الدنيا ويرتقى الوطن ، ثم أن الحماس أخذها فقالت بجد :

– حاولى يافاطمة تنظِّمى خَلفَك .. يعنى لو رجع رجلك بالسلامة وعادت المياه لمجاريها بينك وبينه ، إياك أن تخلِّفى كل سنة والثانية ، وعيل واحد بصحة ، أفضل من عشرة معلولين وصُفر ، وحالتهم منيلة .

سايرتها فاطمة دون اقتناع فقالت :

– معلوم .. كله بإذن الله يامدام .

– طيب خلصى هنا .. وادخلى المطبخ بسرعة ... لأن الوقت عدَّى .

– وهو كذلك .

ردَّت فاطمة ، ولم تنته بسرعة ، لأن عملاً كثيراً ، كان مايزال بانتظارها، بحجرة المكتب وبقية حجرات البيت ، فهى ستلمِّع الزجاج وتمسح الأرض ، وتنظف السجادات العجمية الثمينة . ثم تزيل الأتربة عن الموبيليات والثريات، وكان ماتخشاه هو أن تعود ابنتا صوفى من الخارج ، قبل أن تنجز عملها وتغادر البيت ، لأنهما ستعطلانها بلا شك ، فهما مدللتان ، متكبرتان ، لاتنقطع طلباتهما أبداً ، ولا تتوقفان عن النداء عليها بين الحين والحين ، لتصنع لهما شاياً، أو لتغسل لإحداهما فوراً وعلى وجه السرعة قميصاً ، أو

لتكوى ثوباً ، لكن الله ستر ، وأنهت فاطمة عملها فى السابعة ، قبل ظهورهما فى البيت ، الذى غادرته مسرعة إلى وليدها ، فوجدته عندما أخذته من جارتها ، قد حصل خلال فترة غيابها على جرعات لابأس بها من حليب الجارة وحنانها ، وكان نائماً نوماً هادئاً ولا يعانى من البلل ، فشكرت فاطمة الجارة ، ونفحتها بعضاً من المال لقاء رعايتها للطفل ، إضافة إلى برتقاله وإصبعاً من الموز من برتقالتين وثلاثة أصابع موز كانت قد أعطتهم لها صوفى عند مغادرتها البيت بعد انتهاء الشغل ، فلما تنّبأت فاطمة بأن طفلها سينام وقتاً طويلاً ، حمدت الله ، ووضعته برفق على الفراش ثم ألقت بجسدها إلى جواره لتستريح قليلا من تعب النهار ، وبينما هى مستلقية على ظهرها ، تحدق فى سقف الحجرة ، تنبهت الى أن العناكب قد أخذت راحتها، وتوسّعت فى نسج خيوط أعشاشها بأركانه ، مما يستوجب ردعها بالمقشة ، عند أقرب فرصة ، لاتتاح لها عادة ، فى هذه الأثناء تذكرت الكتاب ، فقامت بهمة وسحبته من حقيبتها التى هى فى الأصل حقيبة قديمة لصوفى ، وعادت لرقدتها ، ساعية للقراءة فيه .

كانت متيقنة أن القراءة ستكلفها جهداً ذهنياً جباراً بلا شك ، لكنها ستحاول على أية حال ، فإن فشلت ، فسوف تستعين بابن جارتها القاطنة فوق السطوح ، فهو يدرس فى المدرسة الثانوية ، وهى مصرة على معرفة مافى الكتاب لرغبتها العارمة فى تربية طفلها أحسن تربية ، وكانت تحلم دائما منذ أن حملت به ، بأن يكون سليماً ، موفور الصحة ، لايعتريه المرض، ولا ينمو هزيلاً نحيلاً ، كبقية الأطفال ، الذين تراهم حولها فى الحى الذى تسكنه .

خلال هذه اللحظات كانت سعادتها سعادة لا حدّ لها ، فصغيرها يغطّ بهدوء ، وتبدو على وجهه علامات الراحة ، حمدت ربها متمتمة على النعمة التى تعيش فيها ، إذ أنها لم تعدم مصدر رزق رغم غياب زوجها، ولديها

طفل جميل كالشمعة المنيرة فى حياتها؛ صحيح أنها كانت فى بداية الأمر تأمل فى عودة زوجها ، إلا أن أخباره انقطعت عنها تماماً منذ فترة ، وكانت تصلها معلومات مشوشة عنه ، فبعضهم يقول إنه سافر خارج البلاد ، والبعض الآخر يقول لها إنه تزوج بأخرى ، على أية حال ، لم تعد فاطمة تنتظره ، ورتبت حياتها على أنه لم يكن بها أبداً ، ثم إنها لاتحقد عليه أو تكرهه رغم ذلك ، فهى تحمل له جميلاً لن تنساه طوال حياتها أبداً، فلقد تزوجها ، كما وعد ، ولم يتخل عنها كأى نذل آخر بعد أن واقعها مواقعة الرجل للمرأة قبل الزواج .

فتحت فاطمة الكتاب برفق ، إذ أنها كانت حريصة ألا توقظ طفلها ، وأخذت تجول بعينيها فى سطوره الأولى ، كانت تفك الخط بصعوبة ، وتحاول هجاء الكلمات ، لكنها تابعت محاولتها بصبر ودأب ، حتى أتت على المقدمة، التى استنتجت أنها مجموعة من الجمل اللطيفة ، والعبارات المشجعة لكل أم مبتلية بعبء الحمل والإنجاب . عبرت فاطمة تلك الصفحات بسرعة ، وراحت تفتش فى الصفحات التالية ، فأخذت تقرأ : طفلك ياسيدتى فى شهره الأول، وهنا ركزت فاطمة بصرها جيدا، وشحذت كل قواها العقلية المحدودة ، لتستوعب وتفهم السطور ، مستعينة على ذلك بإبهامها ، الذى كان يمر على كل حرف من حروف الكلمات حتى لاتخطىء التهجى والقراءة ؛ قرأت الفقرة الأولى ، وكانت متعلقة. بملابس الطفل، من حيث نوع القماش، واللون المناسب المخصص لكل من الذكور والإناث ، ثم بعد جهد جهيد ، دخلت بنظرها إلى الفقرة التالية ، والتى تتناول أسلوب الإرضاع والإطعام ، أما الفقرة الثالثة فشرحت بالتفصيل كل مايلزم ، والمناخ الملائم، لينام الطفل نوماً صحياً هانئاً .

عند ذلك الحد ، شعرت فاطمة بصعوبة شديدة فى القراءة ، بل باتت عاجزة عن ، متابعة الحروف والكلمات ، والحقيقة أنها كانت كمن وقع فى

حيص بيص ، إذ كانت كل جملة وكل فقرة مما قرأت تدفع بأسئلة كثيرة الى رأسها دون أن تجد إجابة لها ، لذلك تركت فاطمة الكتاب ونظرت إلى طفلها الملفوف فى جلباب قديم لها ، وراحت تتأمل قدميه الصغيرتين البارزتين من طرفه ، وقد ازرقتا بعض الشيء ، بسبب برودة الجو ، وأخذت تفكر فى المعضلة : كيف تحصل على أقمطة وشاش وملابس، كتلك التى يشير إليها الكتاب ؟ ، ناهيك عن الجوارب التى يجب تبديلها كل يوم ، أما أن تغسل حلمتى ثدييها ، قبل كل رضعة بماء مضاف إليه محلول مطهر ، وتتناول لترا من الحليب يومياً ، ثم تدهن حلمتيها بين الحين والحين بمرهم مرطب لتقيهما التشقق ، فذلك هو المستحيل بالفعل .

لتر من الحليب يومياً ؟ ! تساءلت وابتسمت ساخرة ، ثم أجابت روحها ، يعنى كلفة الوصول بالقطار للشغل والرجوع منه فى أسبوع ، ولم تبلع فاطمة أبداً فكرة سرير واحد مستقل لعيل طوله شبر وقيراطين ، وعمره شهر وأسبوع ، ابتسمت وقالت لروحها : والله هبل وعبط ، لأنه أفضل للعيل النوم جانب أمه .. ، ولم ترقها فكرة أن النوم المستقل للطفل يجعله فى مأمن من العدوى الجرثومية ، ويساعده على أن يشب ذا شخصية قوية معتمدة على نفسها ، ولم يدخل رأسها هذا الكلام أبداً ، لأنها لم تر طوال حياتها كائناً ينام فى سرير بمفرده ، فهى ظلت تنام بين ثمانية أشقاء لها على فراش واحد ، موضوع على الأرض منذ أن وعت الدنيا وحتى وقت زواجها لما انتقلت الى هذه الحجرة لتنام إلى جوار زوجها فقط .

ابتسمت مرة أخرى ، وهى مستلقية على ظهرها ، حتى بانت أضراسها لعناكب السقف ، لكن بداخلها كان ينمو ضيق وشعور قوى بخيبة الأمل فى كتاب صوفى ، الذى كانت ترجو منه خيراً ، وعوناً على تربية طفلها العزيز أحسن تربية ، ثم أنها فكرت فى صوفى بدهشة، ولم تفهم سرّ إعجابها المبالغ فيه بالكتاب ، وتساءلت إن كانت هذه السيدة قد استفادت حقاً من

الكتاب فى تربية ابنتيها ، فلما تذكرت الفتاتين ، وميوعتهما ، وطلباتهما التى لاتنتهى ، كأنهما ترغبان فى أن يفعل لهما الآخرون كل شىء، ويخدمونهما ، ولم يبق إلا أن يمسحوا لهما خراهما ، زفرت بحرارة ، وقررت أن تعيد لها الكتاب عند ذهابها اليها فى الغد، وصارت حانقة قليلاً ، لأنها فكرت متسائلة : ألم يكن من الذوق أن ترفع صوفى راتبها بعض الشىء بعد أن انجبت ؟ فلما اقتنعت تماما أنها محقة فى تساؤلها ، انقلبت على الجانب الأيسر ،الذى ترتاح فى النوم عليه ، ولتكون فى وضع يساعدها على القام ثديها للصغير إذا ما صحا فجأة ، وطلب الرضاع ، وسرعان ماغالبها النعاس فنامت .

يوم المرأة

دخلت ناظرة المدرسة من باب الفصل، فهتف الأستاذ عثمان آمراً بحماس :

- قيام .

هبت البنات ، وهب الصبيان واقفين ، بينما همهمات تسرى، ونظرات عثمان تجول فى الجميع ، للتأكد من سرعة تلبية ندائه ، وسريان الصمت المبين المطلوب فى مثل هذا الموقف، لأنه كان يقول لتلاميذه دوماً:

- وقوف معناها الجميع هس هس ، والكل يقطع الخنس ، يعنى لو رميت إبرة على الأرض ، أسمع رنتها ، مفهوم ؟ .

فلما تأكد المدرس من تمام الوقوف الصامت لكل تلميذ وتلميذة بالفصل ، قال بصوت مترفع هادئ :

- جلوس .

أخذوا فى الجلوس كما كانوا منذ لحظات ، بينما الأستاذ يرحب بالناظرة ، ويقدم لها مقعده الموضوع خلف طاولته ، بمواجهة التلاميذ الصغار ، لتجلس ، وتطلع على دفاتر تحضير دروسه ، التى سوف يلقيها خلال بقية أيام الأسبوع ، ولما رأى الأستاذ رئيسته تميل بوجهها قليلاً على الدفاتر وتشرع فى القراءة ، استدار ، وكتب على السبورة بخط كبير ، غاب عنه الجمال ، كمالا يليق بمدرس للغة العربية :

- المرأة والحياة .

كانت الناظرة قد بدأت تقرأ فى دفتر المدرس ، كلاماً مطولاً عن أهمية المرأة فى المجتمع ، وذلك بمناسبة الإحتفال باليوم العالمى للمرأة ولاحظت أن الأستاذ لم ينس فى موضوعه الاستشهاد بنساء النبى عليه أطيب الصلاة والسلام ، ونساء العرب الشهيرات ، ومنهن الخنساء ، وهند بنت النعمان، وزبيدة زوجة هارون الرشيد ، ولم تهتم بنسيانه . أو ربما تجاهله – لزرقاء اليمامة ؛ وقد أدركت الناظرة بحكم خبرتها على مدى عشرين سنة بالتعليم الابتدائى ، أنه لابد وأن يختم موضوعه بعبارة الشاعر حافظ إبراهيم الشهيرة : "الأم مدرسة إذا أعددتها .. الخ ، وعند ذلك ابتسمت ، ورفعت رأسها عن الدفتر ، لتتابع مايقوله الأستاذ لتلاميذه ، فلما نظرت إليه ، لاحظت شعر رأسه الخشن الكثيف ، الذى يسهل تمييزه عن بعد، حتى لو كان عثمان فى أقصى طرف حوش المدرسة ، ثم أنها تابعته وهو يقول :

– فقال له ثم من ، فقال أمك ، فقال ثم من ، فقال أمك ، ثم قاله له :ثم أباك .

الولد أسامة عبد الفتاح ، لم يمهل الأستاذ عثمان ليقول المزيد ، إذ صاح من مطرحه بآخر كرسى فى الفصل قائلاً :

– بعد إذنك ياأستاذ ، محمد منصور ماسك حمامته ، ومحصور على آخره .

احمرت أذنا الأستاذ ، وحولت الناظرة نظراتها عن وجه الأستاذ لتدسها فى الدفتر مرة أخرى ، متظاهرة بالانشغال فى القراءة ، بينما ارتفعت ضحكات التلاميذ الصغار عالية ، حتى أنها طيرّت عصفورين كان واحد منهما قد حط فوق الآخر على حافة شباك الفصل ، لكن الضحكات الصغيرة المزقزقة ، سرعان ماكبحت وألجمت ، إذ اكفهر وجه الأستاذ ، ورسم حاجباه عقدة الغضب والنذير فى جبهته ، وساد الصمت إذ صرخ :

– إخرس ياحمار .

لكن الولد أسامة عبد الفتاح : كان صادقاً، متحمساً ، شجاعاً ، ومصراً على إنقاذ مايمكن إنقاذه، فواصل كلامه ليؤكد صدقه :

– والله العظيم ياأستاذ محصور خالص ، وبَلّ هدومه بالأمارة .

لم يكن هناك مجال للمزيد من التجاهل ، فابتسمت حضرة الناظرة ، لتلطف الجو ، وابتلع المدرس غضبه وابتسم بالضرورة ، مشيراً للولد محمد بالذهاب إلى دورة المياه صائحاً :

– طيران .. طيران يازفت .. وإياك التأخير .

ثم أنه أراد تغيير الموضوع ، فمال على الناظرة ، وقال لها بصوت خفيض ، إنه متشدد جداً مع التلاميذ فى مسألة الخروج أثناء الحصص إلى دورة المياه، لأنهم فى منتهى العفرته ، ويتمحجون بالخروج إلى دورة المياه ، للتهرب من الدروس، ثم أوضح لها قيامه بتحضير كل دروس أيام الأسبوع المقبلة ، وأنه كرس دروس اليوم ، بما يتفق ومناسبة يوم المرأة، وفقاً للتعليمات التى وردت إليه من إدارة المدرسة ، لكن الناظرة أشارت له بمواصلة الدرس ، حتى لايضيع وقت الحصة ، والحقيقة أنها كانت مشغولة ومهمومة بالتفكير فى مشكلتها ، وكانت تتمنى أن يزور المدرسة خلال ذلك اليوم واحد من المسؤولين لتحكى له عنها . وإذ كان الأستاذ عثمان يتحدث عن ضرورة أن تكون الفتاة كريمة الخلق ، عفيفة السلوك، حتى تصير إمرأة فاضلة حينما تكبر ، تمنت الناظرة أن تحدث معجزة ، وتزور المدرسة السيدة الأولى ، وهى السيدة الرقيقة الحنون المتواضعة ، التى سوف تستمع ولابد عن طيب خاطر ، إلى مشكلة الناظرة ، عندما تقول لها : هل يرضيك يافندم أن واحدة فى مثل سنى ومركزى ، تنط فى المواصلات كل يوم ، وتتعرض لمنتهى الإهانة ، لأجل الوصول للشُغل ؟ ، ثم أن مسألة نقلى لمدرسة قريبة من البيت سهلة جداً ، وفى يد الأستاذ عبد الحميد فكرى وكيل الوزارة ، لكنه مصر على وجودى فى مدرسة النور لسبب غير مفهوم ، علماً

بأننى مسئولة عن رعاية بيت وزوج وأربعة أبناء فى مراحل التعليم المختلفة ، لذلك أرجوك أن تحلى لى هذه المشكلة ، لأنى فى غاية الضيق والارتباك بسببها .

وبعد ذلك تقدم لها الطلب ، الذى كتبته بخط جميل ، فتأخذه منها السيدة الأولى بمنتهى اللطف ، وتطيب خاطرها بكلمات رقيقة ، ثم تعطيه فوراً لوكيل الوزارة ، الذى لابد وأن يرافقها فى جولتها التفقدية على المدارس فى يوم كيوم المرأة ، فيوقع الوكيل طلب النقل فوراً وبدون إبطاء .

لم تستطع حضرة الناظرة مواصلة حلم يقظتها ، حتى اللحظة التى تمسك بها يد السيدة الأولى ، مصافحة إياها ، معبرة عن أحر امتنانها لها، لأن الأستاذ عثمان كان ذا صوت جهورى لا يقل خشونة عن شعر رأسه ، فاضطرت مجبرة أن تتخلى عن طلب النقل ويد السيدة الأولى ، وتوقيع وكيل الوزارة ، عندما علا صوت المدرس وهو يقول:

- والمرأة هى نصف المجتمع ، وقد أوصى الله بها خيراً ، وقد قيل قديماً..

البنت فاطمة متولى ، لم تسمع ماقيل قديماً ، لأنها كانت مشغولة خلال ذلك بما كتبته على مكتبها المدرسى لزميلتها عائشة مرعى :

- أنا أعمل مثل محمد وأمسك نفسى وأنت قولى للأستاذ فاطمة ماسكة علبة اللولى ومحصورة ، فيضحك العيال كلهم والأستاذ يقول لى ، فزى يابنت وروحى دورة المياه .

أعجبت عائشة بفكرة زميلتها ، وخصوصاً أن عائشة ميالة إلى الشغب بعض الشيء ، وتقليد الصبيان فى كل تصرفاتهم ، ربما لكونها فتاة وحيدة بين ثلاثة أشقاء ، وربما لأنها تحب التفوق على الصبيان خصوصاً فى الجرى والألعاب البدنية ، وبما أنها متهورة بعض الشئ ، بل وميالة للمغامرة أحياناً ، وقفت بسرعة وقالت :

- فاطمة ياأستاذ محصورة ، وماسكه علبة اللولى ، وعاوزة تروح الدورة ومستحية .

كصاعقة سماوية ، اندفع الأستاذ إلى حيث تقف عائشة ، ليهوى بكفه الغليظ على صدغها ، بينما كانت الشتائم تسابق الزبد خروجاً من فمه ، واصفاً إياها بالقباحة وقلة الأدب ، وانعدام التربية ، آمراً إياها بالخروج من مطرحها ، والوقوف قدام الحائط ، ثم توعدها بيوم أسود من الحبر الصينى بعد أن قدم المشيئة الإلهية .

تضايقت الناظرة قليلاً ، لأن الأستاذ عثمان بدا عنيفاً إلى حد كبير مع البنت عائشة ، لكنها لم تعرف أبداً، أن هذا العنف، ربما كان من أسبابه أنه كان مشغولاً أثناء ماقاله قديماً بالتفكير فى أفضل طريقة لعقاب إمرأته وتأديبها ، بسبب سوء سلوكها مع أهله ، وهل يضربها علقة شديدة ، حتى يسمع رنين عظامها ، أم يهجرها فى المضجع ويمنع عنها المصروف ، حتى ترعوى وتعرف أن الله حق ؟ ، ولما تمثلت فى مخيلته صورة زوجته بسيقانها الملفوفة ، وأردافها البيضاء الممتلئة ، وضحكتها الآسرة عندما تتدلل ، شعر أن الحل الثانى سوف يوتره ويضره فى جانب من الجوانب ، فلم يتمالك نفسه من الغيظ، وهوى بكفه على خد البنت عائشة . فكرت الناظرة أن تهمس للأستاذ، وتذكره أن الضرب ممنوع بأمر الوزارة ، وأن اللطمة كانت قوية جداً وربما أثرت على أذن البنت الصغيرة ، لكنها قررت تأجيل ذلك إلى مابعد انتهاء الحصة ، ووجدت أن من الأفضل ، تلطيف الجو ، وقول شىء باعتبارها المربية الفاضلة ناظرة المدرسة ، فخاطبت التلاميذ ، بصوت حرصت أن يكون حكيماً هادئاً وقالت :

- لازم نعرف كلنا ، أنه من الضرورى أن نكون مهذبين ، ألفاظنا محترمة ، وأن كلام البيت يختلف عن كلام المدرسة ، والألفاظ العيب لايصح قولها فى المدرسة أو الشارع ، والبنت لازم أن تكون مهذبة ، صوتها

منخفض ، ثم عيب مسك أى منطقة نجاسة فى جسم الإنسان ، والبنت ممنوع انها تمسك منطقة النجاسة وممنوع ان تقرب يدها منها مهما كانت الأسباب .

ثم توجهت إلى البنت فاطمة ، وقرصتها قرصة خفيفة فى أذنها، وطالبتها بالاعتذار من الأستاذ، وبينما هى تغادر الفصل ، لتذهب إلى فصل آخر، لتتأكد من أن أستاذه ملتزم بتعليمات الوزارة فى يوم المرأة، كانت تفكر فى ضرورة مغادرتها المدرسة بسرعة لتجهيز الغداء ، وكان الأستاذ عثمان يهرش بين فخذيه بارتياح، أما تلاميذ الفصل فراحوا يتنفسون الصعداء ، إذ بدأ جرس المدرسة فى الرنين معلناً انتهاء الحصة .

جميلة اسمها "برتي"

إلى الجميلة برتى مليحة

رفع موظف السجل المدنى رأسه الأسود الصغير عن الأوراق التى كان ينظر فيها أمامه على المكتب وسأل مستغرباً :

- اسمك برْتى ؟ ! .

- لا : برِ ... تىِ .

صححت برتى اسمها له مبتسمة ابتسامة المتعود على دهشة الآخرين من الاسم الغريب ، وأضافت قائلة له أن برتى معناها جميلة بالانجليزى ، فتعجب الرجل أكثر ، لأن معلوماته فى تلك اللغة كانت تفيده أن جميلة تترجم الى بيتفول ، ولم يكتم المسألة فى نفسه ، فجادلها قائلاً :

- لكن جميلة يعنى بيتفول . ثم أضاف أنه لأول مرة يسمع كلمة برتى هذه، فقالت له برتى ، أن جميلة ممكن تبقى بيتفول ، وممكن ، تبقى برتى، أيضاً .

ولما كان وقت العمل مازال فى بدايته ، عند الصباح ، ومكتب السجل المدنى لم يمتلئ بعد بالمضطرين لإثبات كينونتهم ، بالأدلة والمستندات الحكومية ، لذا كانت الفرصة مؤاتية جدا لموظفى المكتب لتبادل الحوار والرأى حول هذا الموضوع ، الذى أثارته تلك الشابة الصغيرة ، باسمها

الغريب ، فقالت واحدة جالسة على المكتب المجاور للموظف الذى أثار الموضوع بعد أن قضمت بقسماطة ، ورشفت وراءها قليلا من الشاى :

– وعلى فكرة ، ممكن تبقى للثى وأظن من المحتمل أن يكون لها معنى رابع ، وأضافت ، بعد أن عاودت القضم والارتشاف مجدداً ، أنها فاكرة أنه كان مقررا ، أيام المدرسة ، زمان ، موضوع فى كتاب الانجليزى عن شم النسيم ، وكان به كلمة نايف .. أوشئ بهذا المعنى .

– نايف ، يعنى مطواة ، أو سكين يامدام سعاد، قصدك نايس . قالها رئيس المكتب بثقة ، وهو الوحيد المتخرج من الجامعة ، بين جميع الموظفين الجالسين بالحجرة ، ذات النوافذ العالية إلتى لم تنظف قط منذ أن استولت الحكومة على منزل النبيل السابق ، وحولته الى مكتب السجل المدنى فى الطابق السفلى ، ومكتب للصحة فى طابقه العلوى ، وأردف ذلك الرئيس، الذى كان مكتبه يتوسط الغرفة بسبب كونه الرئيس، موجهاً السؤال لبرتى :

– يعنى الأسماء خلصت من الدنيا ولم يتبق إلا اسم برتى ؟! .

ابتسمت برتى ، وكسلت عن حكى حكاية اسمها ، التى طالما حكتها فى مناسبات كثيرة مختلفة ، مفضلة فض الكلام ، واسكات الرئيس المتسائل ، فقالت :

– معك حق والله

كان الموظف الأول قد بدأ يختم الأوراق بختم النسر الذى طيره صقر قريش فيما بعد ليحتل مكانه ، لكن دون جدوى ، فقد أصر الناس بنعته بالنسر علما أنه شتان مابين النسور والصقور ، ورغم أنه كان يختم الأوراق بحماس شديد لم يقلله إلا نوبات العطس المتكررة، التى كانت تداهمه ، بينما كان ساعى المكتب حسن ، يكنس الحجرة، موزعا على كل واحد فيها نصيبه من ذرات الغبار المتطايرة ، ورغم أنه كان ينفث ، بين الحين والحين ، دخان سيجارته أيضاً ، إلا أنه استمر فى مواصلة الندوة التى كان قد اقترحها

عملياً منذ قليل ، فألقى بمسألة أخرى توسع دائرة النقاش ، فقال أنه لابأس على معنى اسم برتى ، لأنه من خلال عمله الطويل بالسجل المدنى وردت عليه أسماء عجيبة غريبة ، فمرة عمل بطاقة عائلية لأرملة اسمها «نزانين» ومرة أخرى استخرج بدل فاقد لبطاقة خفير صعيدى اسمه «حنك السبع» لكن الاسم الذى لاينساه أبداً ، كان لواحدة بدوية من عرب الطوايلة اسمها «ريح الصبا» .

– ياسلام !!

تصاعد صوتان على الأقل معقبان بذلك على حلاوة الإسم ، كان منهما صوت حسن الساعى ، الذى توقف عن الكنس ، واتكأ بقدمة اليسرى على يد المكنسة المصنوع شعرها من قش الرز ، وقال :

– طيّب .. هل حصل أنكم سمعتم « مرعى من رب السماء والمياه والأرض » ؟! .

ضحك الجميع من ذلك الاسم ، حتى برتى ، وقالت مدام سعاد ،التى كانت ناسية كلمة نايس :

– إنه موضوع إنشاء تقريباً وليس اسماً .

لكن حسن حلف بالنعمة الشريفة ، التى كانت وقتئذ عبارة عن كوب الحلبة الحصى الموضوع على مكتب الرئيس ، والذى رفعه حسن بيده ليثق الجميع بقسمه ، وأقسم ، مرة أخرى ، بدين النبى أن الحكاية حصلت فى مكتب سجل مدنى أسيوط ،من مدة بعيدة، فى أيام عمله هناك قبل نقله لمصر ، وأن الاسم كان لطفل مولود أراد أبوه تسجيله ، وأنه اختار له هذا الاسم لأنه مات له قبله واحد وعشرون عيلاً ، وكان رئيس السجل، وقتها ، رافضاً التسجيل ، وقعد يضرب الكف بالكف من تعجبه ، لكن الرجل طأطأ فى الأرض، وباس رجل رئيس المكتب ، وقال أنه حضر له واحد من مساخيط البربة ، فى الحلم، وأمره بتسمية المولود بهذا الاسم .

– سبحان الله !؟ . قال رئيس المكتب ذلك بصوت علا على كل الأصوات الأخرى ، التى تصاعدت للتعقيب ، واستمر مواصلاً كلامه، فقال :

إن الاسم محتمل أن يكون له كلمة واحدة قديمة ضاعت مع الزمن وبقى المعنى محفوراً فى ذاكرة الناس ، ثم أخرج من جراب ذاكرته حكاية جديدة، عن بنت عمل لها فى مرة من المرات بطاقة شخصية ، كانت جميلة كفلقة القمر ، واسمها «تغريد البلبل » وأوان ذلك كانت الحكومة مانعة استخدام الأسماء المزدوجة بقانون جديد ، ربما بسبب قوانين الملكية والإصلاح الزراعى وماشابه ذلك ، لكنه سجل الاسم كما هو ، لأن البنت كانت جميلة فعلاً ، بل أروع من تغريد البلبل نفسه ، ثم أنه التفت إلى برتى قائلا :

– لكن بالتأكيد . اسمك سبب لك بعض المشاكل .

أجابت برتى بالنفى ، بينما هى تمسح العرق النازح من قفاها ، وخلف أذنيها ، بمنديلها القطنى المطرز بوردة حمراء صغيرة ، ارتوت قليلاً من ذلك العرق ، فبانت بلون أدكن قليلاً ، ولولا أن الوقت كان يمضى مسرعاً ، وهى تريد الحصول على البطاقة لتقديمها لجهة العمل التى ستعين بها لتستكمل بذلك الأوراق المطلوبة منها ، لولا ذلك الاستعجال ، لكانت حكت لرئيس المكتب ، وبقية الموظفين كل متاعبهامع اسمها الجميل ، منذ زمن بعيد وحتى بعد أن دخلت المدرسة ، وصارت مدرسة اللغة الإنجليزية توقفها أمام التلميذات لتشير إليها – بينما هى تعلمهن مبادئ اللغة الانجليزية – قائلة :

– ذيس اذ برتى .

فيقول وراءها الجميع فى صوت واحد :

– ذيس اذ برتى .

كانت برتى تغتاظ كثيراً، من ذلك، حتى يتصاعد الدم إلى أذنيها ، فتشعر بسخونتهما بسبب أن المدرسة كانت قبل ذلك تشير إلى المنضدة والشباك ، وسلة المهملات ، مطلقة عليها أسماءها الانجليزية ، أما مدرسة الألعاب ، فكانت تقول لها ،عندما تفشل فى القفز على الحصان الخشبى :

– خسارة اسمك عليك .. المفروض أن يكون اسمك بُرُوتُه . كثيراً ما تألمت لذلك دون أن ترد ، بينما كراهيتها تزداد لتلك المدرسة ، التى لم تعرف أبداً أنها لم تكن تنط خوفاً من فتح ساقيها كثيراً ، حتى لاتبين ملابسها الداخلية ، وينكشف فخذاها أمام فراش المدرسة ، الذى كان يحلو له التشاغل بتنظيف الفناء أثناء حصة الألعاب ، ورغم تلك المتاعب القديمة ، ومتاعب أخرى كثيرة صادفتها برتى فى الحياة بسبب اسمها، إلا أنها كانت تفكر دائماً فى الجمال ، وتحب كل ماهو جميل ، ورغم أن فكرتها عن الجمال كانت غامضة بالنسبة لها تقريباً ، إلا أنها كانت تشعر بجمال الأشياء ، والكائنات والناس بحس فطرى مبهم ، ربما هو الذى كان يدفعها ، أيضاً لتكون طيبة ، رقيقة ، كنسمة صيفية شفافة ، مجسدة بذلك النقيض الحى لنظرية كانط فى الجميل والسامى ، علما أن أبيها لم تكن لديه أية منطلقات فلسفية عندما أسماها برتى ، فهو لم يقصد أن يسميها جميلة ، إلا من زاوية الحفاظ على اسم أمه المتوفاة ، قبل ميلاد ابنته بشهور قليلة ، إلا أن جارته اليونانية ديانا، والتى كانت تعمل كمديرة منزل لتاجر خردوات انجليزى ميسور ، هى التى منحتها اسم برتى ، عبر صدفة غير مقصودة – لاأكثر ولا أقل – فقد ذهبت ديانا ، إلى جيرانها الأعزاء ، لتبارك لهم بمناسبة ميلاد طفلتهم الأولى والتى ستكون الأخيرة أيضاً – وبينما هى تحمل بين يديها قطعة اللحم الطرى ، التى لم يمر على ورودها ،إلى الدنيا ، إلا أيام معدودة ، وتحاول الباسها اللكلوك الكيروشية الوردى ، الذى صنعته لها فى قدميها الصغيرتين ، فتحت الطفلة عينيها ، ناظرة إلى ديانا ، تلك النظرة السحرية الغامضة للأطفال الرضع ، التى تجعل المرء راغباً فى الارتماء تحت أقدامهم طالباً المغفرة ، فشهقت ديانا الطيبة بانفعال كبير وقالت : أوه .. برى .. برتى ، فسألها أبو البنت ، الذى كان قد استكمل تعليمه نهائياً فى كتَّاب قريته منذ سنوات بعيدة ، عن معنى كلمة برتى ،

فقالت له بالعربية التى كانت قد أتقنتها بحكم كونها عاشت بما يكفى فى مصر، بعد أن فرت منذ طفولتها الأولى مع أمها ، من بلاد الأولمب ، إلى أرض الأهرام ، فى ذلك الزمن ، الذى حاول فيه موسولينى توسيع حذاءه الإيطالى ، فوطأ أرض اليونان ، .. قالت له ديانا أن برتى يعنى جميلة عند الانجليز ، فبرزت فى رأسه الذى لاتبرز فيه أفكار جديدة - عادة - تلك الفكرة المبتكرة ، وأسمى مولودته برتى .

غير أن الأهل والجيران ، قرروا تطوير الإسم تطويراً مصرياً ملائماً ، وهو التطوير الذى جرى ابتكاره منذ أزمان قديمة ، تعود الى عصر الاحتلال الأول ، يتلاءم مع كل الاحتلالات الأجنبية التى حدثت ، والتى من الممكن حدوثها فيما بعد ، فقرروا أن تصبح برتى .. بيبى ضاربين بذلك عصفورين بحجر واحد ، فهو أولاً اسم سهل الاستعمال ، بدلاً من برتى الصعب ، ثم أنه اسم تدليل كفيفى ، وميمى، وربما كان لهذا أيضاً علاقة بما ترسب فى ذاكرتهم اللاواعية عبر الأجيال عن ملك قديم مندثر ، كان اسمه بيبى الأول .

كانت برتى تستطيع لو أوتيت بعضاً من الموهبة ، التى لايمكن لأحد التكهن بوجودها من عدمه ، أن تؤلف كتاباً لابأس بحجمه، عن كمية الطرائف والمشاكل التى صادفتها بسبب اسمها ، لابسبب كونها جميلة ،كما يفعل معظم الكتاب بالعالم ، فى كل العصور ، ولكن بسبب أن اسمها جميلة بالانجليزى ، فلو كانت الحياة قد منحتها فرصة أكبر من كونها موظفة صغيرة فى مؤسسة حكومية، لربما كتبت برتى عن العريس الوحيد الذى تقدم لها قبل بلوغها الخامسة والعشرين ، لكنه سرعان ماتركها ، بعد الخطوبة بشهرين ، وهى الفترة التى أخذ خلالها يتحرى عن زوجته المقبلة ، فعرف أنها يتيمة الأب ، ومنذ زمن بعيد ، مهجورة من الأم قبل ذلك بسنوات، بسبب فرارها إلى عشق قديم ، ساعد على انتعاشه مجدداً ، فى قلب الأم الصغيرة ، غياب الأب الدائم عن البيت ، لأنه كان يعمل سائقاً

لشاحنة نقل بين المدن البعيدة . أفادت التحريات، ذلك العريس ، أن ديانا الطيبة كانت أكثر من جارة ، فتعاطفت مع الأب المهزوم ، وربت برتى فى حضنها ، وظلت ترعاها كالأم ، حتى مات الأب، الذى كان وجوده كعدمه بالنسبة للصغيرة برتى .

لكن العريس ربط بين الاسم والقصة ، وكان استنتاجه ، الذى لم يكن فذاً إلا برأيه ، أنه لابد وأن الأمر ينطوى على سر خطير ، فهناك حلقة مفقودة فى الحكاية الغريبة لتلك الفتاة ، فما معنى أن يكون اسمها برتى، وتربيها امرأة يونانية ، بينا تختفى أمها ، فى ظروف غير معروفة، ويموت أبوها ؟! . ولما كان السينما المصرية خلال تلك الفترة غنية جداً بميلو درامات ومآسى الحلقات المفقودة والأسرار العائلية الغامضة ، التى سرعات ماتنكشف، فى نهاية ساعتين من العرض ، عن جرائم ومخاز خطيرة ، ولما كان العريس إياه من مدمنى حفلة الساعة الثالثة ، فى أى سينما تقدم ثلاثة أفلام فى برنامج واحد ، مقابل ثلاثة قروش ، فقد أخذ يفكر ويفكر ، محاولاً اكتشاف الخيوط السرية ، المجهولة ، فى حياة برتى ، متوصلاً بمنهجه السينمائى ، إلى نتيجة مفادها أن برتى على الأغلب ، لابد وأن تكون فى الأصل طفلة لقيطة ، ربتها تلك اليونانية العجوز ، المدعوة ديانا ، ومنحها الأب المدفون منذ زمن اسمه لسبب مجهول ، وبالتالى فإن النتيجة المحتملة ، المترتبة على هذه النتيجة ، أن برتى بنت حرام ، وهو لايمكن أن يتزوج بأى حال من الأحوال ، بنت حرام ، ناهيك عن أن اليونانية يمكن أن تكون قد نصّرتها، بحكم التربية، والعشرة الطويلة ، أو على الأقل لم تعودها عادات بنات والمسلمين والحقيقة أنه كان فى هذه المسألة تحديداً أحمق كبيراً ، ومتسرعاً فى استنتاجاته الى أقصى حد ، لأنه لم يدرك أبداً ، أن اليونانية المذكورة ، كانت قد تمصرت ، رغماً عنها منذ طفولتها البعيدة ، فى مصر ، بما يكفى لاعتياد أكل الكنافة والقطايف في شهر رمضان ، الذى كانت تنتظره ، بشوق كبير ، لتشرب فيه القمر الدين المثلج ، عند الجيران ، ثم

أنها كانت تحتفل بعيد شم النسيم ، وتذهب مع جاراتها لمولد السيدة عائشة، مشياً على الأرجل ، تخريماً من الفجالة ، عبر شوارع وسط البلد إلى موضع المقام ، صحيح أنها كانت تصطحب برتى معها إلى الكنيسة ، لكن ذلك لم يكن إلا وقت الأعياد ، لتستمتع ديانا بالطقوس الاحتفالية البهيجة ، وتستمع إلى القداس الذى كان يبدأ عادة عند منتصف الليل ، فتستطيع برتى بذلك أن تحل مشكلة الانتماء الدينى حلاً دبلوماسياً يرضى جميع الأطراف ، على طريقة الحلول الدولية ، هذه الأيام ، حيث يبقى الوضع كما هو عليه، فبرتى كانت تلهو وتلعب، طوال الطريق الى الكنيسة ، سعيدة بثوبها الجديد ، الذى كانت ديانا تحيكه لها ، عادة ، من أثوابها القديمة ، أو تحصل عليه من أثواب عيال التاجر الانجليزى إياه ، لكن سرعان ماتنشب خناقة عائلية صغيرة ، بين ديانا وبرتى ، بسبب أن النعاس يهاجم الأخيرة ، فتطلب النوم عل كتف ديانا ، التى ترفض بشدة ، هذا الطلب المستحيل ، متذرعة بأنها عجوز ، لاتقوى على حمل دجاجة صغيرة ، فتبكى برتى ، وينتهى الأمر بهزيمتها ماشية الى الكنيسة التى سرعان ماتنام فيها ، بمجرد جلوسها ، على الكرسى للاستماع إلى القداس .

وحتى بعد أن تسلمت برتى العمل، كموظفة سكرتاريه فى تلك المؤسسة الحكومية الكبيرة ، ظلت متاعبها مع اسمها قليلة ، لاتذكر ، بحيث يمكن التغاضى عن ضمها لمؤلفها المفترض ، لكن بعد زمن قصير ، وبينما كانت برتى ، تسير بها الحياة سيرتها العادية ، المرسومة لموظفة صغيرة فى أسفل الهرم الوظيفى ، وبينما بدأ زملاؤها، فى العمل ، يعتادون على اسمها وينطقونه ببساطة ، كفاطمة ، ونادية ، ونجوى ، كان مصير برتى يتقرر على نحو مخالف تماماً ، ربما بسبب تلك التغيرات الكبيرة التى حدثت فى البلد كلها ، وجعلت كلمة «بيزنس» أشهر كلمة انجليزية ، متداولة فى البلاد من الشمال إلى الجنوب ، ومن الشرق الى الغرب ، وهى الكلمة السحرية ، التى عملت مايشبه الهوس ، فى حياة الناس ، فتدافع الشباب منهم لتعلم

الانجليزية ، والكمبيوتر ، والنساء لصباغة شعورهن بالألوان الأصفر ، الأحمر ، وكل الألوان الممكنة ، ماعدا الأسود طبعاً ، أما الأطفال فباتت مطالبهم العادلة هي الجينز ، والكوتشي، والجيلي كولا ، وقد تأثرت برتي، شخصياً ، بهذا المناخ العام، فكانت تشعر بالقهر كلما وجدت نفسها تقف أمام الواجهات الزجاجية للمحلات الأجنبية ، الجديدة التي انتشرت فروعها، بكل مكان انتشار النار في الهشيم ، بينما هي تتأمل جمال المعروضات وارتفاع أسعارها الجنوني ، فتتحسر على حظها العاثر ، الذي لايتيح لها إلا الحصول على بضعة جنيهات قليلة آخر كل شهر لقاء عملها في تلك المؤسسة الحكومية الكئيبة .

ورغم أن حسرتها لم تدم طويلاً ، لأن برتي ، كان مستقبلها يتقرر ، أنذاك ، وفقاً لتلك المتغيرات الجديدة ، إلا أن متاعبها مع اسمها لايمكن الجزم بأنها سوف تتوقف أيضاً ، فمدير المؤسسة الحكومية لم يكن يرى مؤسسته كئيبة أبداً ، مثلما كانت تراها برتي ، لأنه ، باختصار، كان قد نهب من هذه المؤسسة مايكفي لفتح مؤسسة أخرى جديدة ، الفارق الوحيد أن المؤسسة الجديدة اسقطت من عليها صفة الحكومة ، ليضفي عليها اسمه وصفته الشخصية ، بالإضافة للمال والعلاقات والخبرات ، وأفضل الكفاءات الوظيفية التي نهبها من مؤسسة الحكومة ، ذلك المدير ، وقد كانت برتي ضمن المنهوبات أيضاً ، بما أن الرجل يقوم «ببيزنس » حيث اقترح على نفسه ، وبينما كان يرتب أوراقه في دنيا الأعمال ، مسترشداً بمنهج الجدوى الاقتصادية الشائع ، في كل المشروعات التي جرى انشاءها، ماعدا المشروعات الحكومية ، والعامة طبعاً ، وقرر أن يضم برتي إلى عالم مؤسسته الجديدة ، مستفيداً من اسمها ، موفراً على نفسه تكلفة تشغيل سكرتيرة أجنبية تقبض راتبها بالعملة الصعبة التي لم تكن صعبة المنال، بالنسبة له ، كانت فكرته بسيطة : تقص برتي شعرها قصة ملائمة، وتصبغه بلون يتلاءم مع دنيا الأعمال ، ثم تحصل على كورس انجليزي معقول ،

لتصبح بعد ذلك سكرتيرته ، التى سوف يقال للجميع أنها من أصل انجليزى، لذلك فاسمها برتى .

برتى، طبعاً ، سوف تصحبه ، باعتبارها سكرتيرة رئيس مجلس الإدارة، إلى أماكن كثيرة: سهرات تعارف وعشاءات، وغداءات عمل وحفلات استقبال، ولسوف تتعرض ، أيضا ، لصنوف مختلفة من الغواية ، بحكم طبيعة العمل، لكنها ستكتفى بتجارب سطحية خفيفة ، فى هذا الجانب، متسلحة فى مواجهة ذلك بتربية ديانا البتول ، ثم أنها سترفض عروض زواج كثيرة ، بسبب أن راتبها تجاوز الألف جنيه ، ولأنها بمرور الوقت ، وبلغة الأعمال ، أصبحت سكرتيرة من الطراز الأول ، بعد أن تعلمت الفرنسية ، وقليلاً من الألمانية ، ثم بسبب أنها كانت تحلم بالارتباط بصاحب شركة ، أو رجل أعمال ، وهذا مالم يتحقق أبداً ، بسبب أن هذه النوعية من الرجال يفضلون أمثال برتى عشيقات ، وليس زوجات ، لذلك فلسوف تمر الأيام والسنون ، لتصبح برتى بمرور الوقت ، مثلما كانت دائماً ، امرأة وحيدة ، تقطن شقة معقولة ، بالقرب من وسط المدينة ، يشاركها الحياة فيها كلب مخلص ، وقطتين ، يجلسون إلى جوارها عادة فى الأمسيات ، بينما تتطلع بملل الى برامج التلفزيون ، غير أنه فى زمن آخر .. بعيد ... وربما قريب ، حيث تحدث متغيرات أخرى ، سوف يشير الناس إلى برتى قائلين عجوز وحيدة ، كانت تعمل موظفة براتب كبير فى مؤسسة من مؤسسات العهد البائد .

ترجمان الأشواق

نادت على حسن أربع مرات ، مرق صوتها الصافى عبر أغصان الشجر العالى ، عابراً السور الممتد ، المسيج بالأسلاك الشائكة ، أسقط من يده خرطوم المياه الذى كان يرش به حوض الريحان ، واشرأب بعنقه، لتتطلع عيناه فى شوق إلى حيث النداء . رآها ، فزغرد فى قلبه فرح بان فى ارتعاشات صوته الواصل إليها بتحية المساء ؛ سألها عن حالها وراح يحكى لها حلمه بها دون انتظار رد السؤال ، كان يمسك بحبل طويل من الحرير الوردى مدته إليه ليصعد إليها فى شباكها العالى؛ وهى تحاول جذبه برفق حتى لا ينقطع ، لكنه عندما أوشك على الاقتراب منها ، صحا من نومه على صوت دوران المفتاح فى قفل الزنزانة ، والسجان ينادى على الذين بداخلها ليصحوا . قالت له أن النوم جافاها طيلة الليله الماضية ، وأن الأزمة كادت أن تفاجئها ، ذكرته بزيارة حماتها لها فى الغد ليطلب أى شىء أخر يحتاجه غير الطاقية الصوف ، سألها أن ترفع صوتها قليلاً لأنه لايسمعها جيداً ، تملت وجهه بنظراتها قدر المستطاع من خلف النظارة السميكة الموضوعة على عينيها ... ابتسمت ... هى تحب العبسة التى تضم حاجبيه ، وأنفه الشامخ الطويل، تمنت ملامسة كافة تفاصيل الوجه بيديها ، وأن تمرر إصبعها على شفتيه ، وتتملى هذا الوجه الحبيب إلى قلبها ، مرة واحدة فى وضعه الطبيعى ، دون أن يكون رأسه مائلاً للخلف ، شاخصاً ببصره إلى

حيث تقف هى دوماً فى شباكها العالى خلف القضبان ، ملست على رأسها، وتنهدت قائلة له : « بص .. قصرت شعرى من قدام » . نظر اليها ملياً ، واستقرت نظراته فى عينيها محاولاً التأكد من لونهما ، مرة أخرى، هو يراهما بلون العسل الداكن إذاما نادت عليه عند الصباح ، أما عندما تستدير الشمس وتغمر الشباك ، حيث تكون واقفة ، فتبدوان أفتح كثيراً بلمعة أخاذة. تنهد ، وقال لها : « حلو خالص .. لكن خليه على طول ينزل على كتفك ، بكرة ، إن شاء الله ، أشيع لك عقد الخرز الأحمر ، ناقص حاجة بسيطة ويكمل ، سأرسله مع منيرة السجانة ، عن طريق حسن النجار» .

ثم أخبرها أنه بدأ يتعلم الكتابة بمعرفة واحد محكوم عليه بثلاث سنين ، نقلوه إلى عنبره ، أخيراً ، وأنه سوف يصير قادراًعلى كتابة اسمه ، وقراءة الجرائد ، لم يقل لها أنه يتعلم خصيصاً حتى يستطيع كتابة الرسائل لها ، ليقول على راحته كل مايخبئه قلبه لها من حب وشوق ، وحكايات كثيرة تفيض بها نفسه ، كل ليلة ، ولايستطيع التعبير عنها . وقال لها أنه تحدث مع زميله ، معلمه ، كثيراً عنها ، وأن اسمه « سمير » ويحب أن يشوفها ، لكن شغله بعيد عن الجنينة ، وصعب عليه الحضور لهذا المكان ، وهو محكوم بثلاث سنين لأنه كسر رجل عمه فى خناقة بسبب خلاف على ورث . قفزت ، وجلست على حافة الشباك ، وبينما أدخلت يدها إلى صدرها ولامسته بأناملها قالت له : « تعرف ياحسن .. وحياة الشمس المروحة في سماها الظاهرة قدام عينيك ، أنا ، من يومين ، كنت قاعدة أفكرفى أنك لازم تتعلم .. ولو حتى الشىء البسيط ، بحيث انك تكتب اسمك ، وتقدرتطلع على المجلات، وتعرف أول الدنيا من أخرها ، لأن سنك مازال يسمح ياحسن .. والوقت هنا طويل لا أول له ولاآخر ، وكل الأيام شكل بعضها . السبت كأنه الأحد ، والخميس كأنه الجمعة . تعرف نفسى أسألك سؤال ياحسن :

ياترى، الزمان ممكن يساعدنى ، وأعيش لحد ساعة خروجى من هنا ، وأقابلك ، ونبقى مع بعض على طول ياحسن » .

كان ذلك السؤال هو هاجسها الدائم ، الذى يلح عليها ، كلما خلت إلى نفسها ، هى تخاف أن تموت هنا خلف هذه الأسوار البغيضة، دون أن يمنحها الزمان فرصة لقاء حسن ، وهى المحكوم عليها ، إلى الأبد ، بعاهة فى القلب ، وأيضاً بسبب جلب المخدرات إلى البلاد .

ساءلت نفسها ، وصور حياتها تعبر أمام عينيها ، كشريط سينمائى غريب ، منذ أن دخلت السجن قبل حوالى عشر سنين ، كانت وقتها فى الحادية والعشرين تقريباً ، ضبطها البوليس فى المطار بعد احترافها تلك الحرفة التى باتت تمقتها الآن ، احترفتها لأنها لم تجد وقتها شيئاً بديلاً تعمله ، أغوتها فى البداية جارة لهم ، وزوجتها من ابنها عندما بلغت الثامنة عشرة من عمرها ، وهى التى كانت تحلم بالفرار من بيت أمها وزوجها ، الذى طالما ضربهما معاً ، وكان ينعتها دوماً بالصفراء ، أم ضب ، التى يقطع شكلها الخميرة من البيت ، تزوجت لتقع فى تلك الدائرة الجهنمية ببيت زوجها ، تعاطى المخدرات ، ثم بيعها ، ولكن زوجها مات فى حادث سيارة ، وبقيت هى مع أمه تسافر إلى خارج البلاد ، فتعود حاملة المحرم الممنوع ، الذى باتت خبيرة فى إخفائه بكل مكان من متاعها ، بل ووصل بها الأمر إلى وضعه فى ذلك المكان الخفى فى جسدها ، الذى كانت أمها تطلق عليه في صغرها علبة اللؤلؤ ، تحسرت وهى تتذكر ذلك ، واليوم الذي ضبطت فيه بالمطار ، وحكم المؤبد الذى معناه أن تبقى فى هذا المكان الجهنمي إلى الأبد، لكن حماتها لاتنساها ، تجيء اليها في موعد الزيارة محملة بالطعام ، والسجائر ، والهدايا ، تغدق عليها ولاتضن ، تضمها إلى صدرها بشوق ، وتبكى فى كل مرة تزورها فيها ، رغم مرور السنوات ، بينما تعلن حسرتها على شيء واحد وحيد ، هو أنها لم تنجب من ابنها الوحيد كائناً يبقى لها

من رائحته ، .. «آه لو فكرت الولية المسكينة فى كونى عاشقة لواحد غير ابنها ، وانى نسيته خالص » . لم تكن تحبه ، ولم تكرهه ، أما حسن .. حسن أمنية الفؤاد ، ذلك الذى لا تفارق صورته مخيلتها ، ويتغلغل في دمها ورحها ، والذي أرسله الله لها ، كطوق النجاة الذى يلقى لغريق ، النجاة من اليأس ، وفقدان الأمل اللذين يلازمانها منذ أن جاءت لتعيش بين جدران هذا السجن البغيض .

قال لها حسن أن مصير الحي يتلاقى ، وأن في السماء رباً ينظر ويشوف ، ويرحم ويغفر ، وأن الدنيا شيء كما الكذب ، ممكن تغير أحوالها فى ساعة ، وتجعل الإنسان عاجزاً عن معرفة إن كان فى حلم أم فى علم ، لكن عليها التاكد من أن حبها في قلبه ثابت لايتزحزح من مكانه، حب لاحد لـه كماء البحر ورمل الجبل ، وأنه عندما يخرجان بإذن الله ، وبأمر العزيز الكريم ، فسوف يتزوجها وينجب منها دستة عيال ، يملأون عليهما الدنيا ، ويعوضونهما عما فات من حرمان الوحدة وبؤس البعاد ، وأنه ينوى الشغل فى أية مهنة كانت ، حتى لو اضطر للدوران فى الشوارع ينادى على حزمات من الفجل يبيعها للناس ، المهم أن لاتحزن أو تهتم ، «وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم» ، فلولا هذا السجن المقدّر ، ربما لم يكن من الممكن أن يتلاقيا أبداً ، أوأن يكون ما كان بينهما من ود وهيام.

زادت سنية القوادة من صوت الراديو أكثر ، فأكثر ، فطلب منها حسن مرة أخرى أن تزعق وتعلي الصوت حتى يستطيع أن يسمعها . أقسمت بشرفها أن تسلط عليها فريدة المجنونة ، لأن سنية زادتها جداً، هى تكرهها كراهية لاحد لها منذ أن رأتها لأول مرة ، وكرهتها أكثر لما عرفت أنها قوادة داعرة . سنّية تحقد عليها لأن المسجونات يحببنها ويعطفن عليها ، لأنها لاتبخل عليهن بشيء يكون في مستطاعها وتطوله يدها ، ومنذ أن عرفت سنية بحكاية حسن وهى تغار ، ويأكل الغل قلبها وها هى كالعادة لاتكف

عن مضايقاتها مثلما لا يكف لسانها ، المحتاج لقطعه ، عن السخرية والتندر على حكايتها مع حسن . وحكاية الراديو زادت عن حدها .. حتى اللحظات القصيرة التي تسرقها للكلام مع حسن تريد أن تشوش عليها وتفسدها ، لسوف تسلط عليها فريدة المجنونة ، وتشكوها لها.وفريدة سوف تنتقم لها بطريقتها لأنها تحبها وتحترمها ، وربما ضربت سنية أو هددتها بالقتل فتضطر للبقاء في العنبر محبوسة ، لاتستطيع الخروج إلى الحوش لمدة ، مخافة أن تراها فريدة .

– انت سرحانة خالص .

زعق حسن لتسمعه ، وهو يحاول أن يغطيها بنظراته ، كان يتمنى أن يراها بكاملها مرة واحدة ،أن يرى من جسدها كل ما يحجبه جدار الشباك عنه دوماً ، هو لا يرى إلا رأسها وكتفيها وذراعيها ، وبعضاً من صدرها ، أما الباقى ، فيحجبه عنه ذلك الحائط العزول، الذى طالما تمنى أن يختفى وينزاح بقدرة قادر، كما يتمنى انزياح جدار السجن كله، لذلك تظل صورتها ماثلة فى ذهنه عندما يفترقان. وجه أسمر حلو التقاطيع، له عينان بلون العسل، أما الجسد فيشتهيه، ممتلئاً بعض الشئ عند الردفين، بخصر نحيل، وساقين ناعمين مستديرى الكعبين. إنه يضمها بعينيه، ويتجسدها بجانبه، دوماً، فى فراشه، وتظل رفيقة أحلامه ... منذ تلك اللحظة التى نادت عليه فيها من شباكها العالى فى السجن الآخر، الذى يفصله عن سجنه سور كبير، عندما كان يقوم بالعمل المكلف به، وهو سقى الجنينة، وسألته أن يرسل لها بعضاً من الورود، فقطف لها وردات نضرات جميلات : وفرد ذراعه مطوحاً بها إليها بأقصى ما يستطيع من عزم وحيلة، حتى تصل الوردات إلى شباكها العالى، فتمد يدها عبر القضبان لتتلقاها. ابتسمت له يومها وشكرته، فانفتحت فى قلبه، وهو ينظر إلى شفتيها المنفرجتين، طاقة حنان، وتفجر ينبوع مودة، وأخذت تمد بينه وبينها حبل الكلام، وسرعان ما

أصبح الورد بينهما رسول المحبة ، وترجمان الأشواق ، عبر سنين طويلة ممتدة ، إذ كان نصيبه ، من الزمان صنو نصيبها ، وهو المحكوم بالمؤبد بسبب حكم أمه وأعمامه وأخواله عليه أن يأخذ بثأر أبيه ، ويمحو العار ، فقتل وهو عالم أنه مقتول يوماً لامحالة ، وليته كان قتل فى التو والساعة ، ولايقتل كل يوم ألف مرة بين هذه الجدران المقبضة الكئيبة ، التى تلتهم روح الإنسان وتفنيها .

فى كل الأيام والشهور والفصول ، تأخذ الوردات ، تضعها فى كوب ماء على شباكها ، تأخذ واحدة فتشبكها فى شعرها ، الفلة تدسها فى صدرها ليتضوع عبيرها بين ثدييها ، أحياناً يداهمها الأرق ، وتشعر بعبث الأيام ، وجنون الكون ، فتفكر جادة فى قتل نفسها ، أن تخبط رأسها بكل ما تملك من قوة فى قضبان الشباك الحديدية ، حتى تنفلق العظام ، ويتناثر ما بداخلها ، فتنتهى من ذلك الكابوس الرهيب ، الذى تعيش فيه منذ سنوات تبدو لانهاية لها ، لكن الوردات سرعان ما تناديها، أحياناً تسمع صوتاً سحرياً خفيضاً يناجيها : أيتها الصغيرة المعذبة ، لا تبتئسى وتقنطى ، تذكرى حسن .. حسن الحبيب الحبيب ، الذى أرسلنا إليك نؤنسك فى وحشتك ، ونخفف عنك وحدتك وعذاباتك ...أيتها الشقية القاسية ، تأملى حاله لوذهبت إلى الموت ، وتركتيه وحيداً ضائعاً بلا حبيب فى صحراء تلك الحياة القاحلة التى يحياها .

عندئذ تهدأ نفسها ، وتقوم لتشعل لنفسها سيجارة ، تمتص أنفاسها بعنف ، وتقف على الشباك لتنادى على سهارة الليل من السجانات ، فتتحدث معها قليلاً عندما تجىء وتقص عليها طرفاً من أخبار السجن ، أما إذا كانت منيرة ، تلك الشابة الطيبة ، التى تحبها كثير ، وتعرف حكايتها مع حسن ، وتحكى لها عن مشاكلها مع زوجها، وتقتيره عليها وعلى عيالها مطالباً إياها أن تحط مرتبها كله فى البيت . تحب أن تسامرها منيرة ،

بينما تدخن وترمى لها حيث تقف فى مكانها أسفل مبنى السجن السجائر والطعام ، الذى يمكن أن يصل إليها سليماً ، حتى يصالحها النوم ، ويعود مصافحاً عينيها ، فتودع منيرة وتلقى بنفسها على الفراش، لتنام وتحلم بذلك الحلم الجميل الذى يعاودها بين الحين والحين، حيث ترى نفسها فيه ، دوما ، بصحة جيدة ، وعافية كعافية كل الشباب الأصحاء ، امرأة ميسورة الحال من مستورى الناس وميسوريهم ، تجلس فى بستان تملكه ، وسط أيكة من الشجر المزهر ، المثمر بينما تأمر البستانى بالإسراع فى ضم الورود ، وصنع باقات مما حفل به البستان من طرائف الألوان ، وطرائف الأشكال ، لترسلها للأخيار من أهل السجون ، إنها تهب طرح البستان عن آخره لهم لأنهم يعانون محنة الابتعاد عن دنياهم ، ومحرومون من نعمة اختيار ماتود نفس الكائنات اختياره ، ثم أنهم قد وقعوا فى شباك تلف الأرواح ، حتى وإن بقيت أجساد بعضهم سليمة معافاة. وتستمر فى حلمها، فترى نفسها تشمر عن ذراعيها وتقطف الوردات بيديها، وترتبها فى ذوق عجيب ، لتبدو فى منظر جميل ، تبعثها إلى كل سجن من السجون التى تعرفها وتسمع عنها ، عند كل صباح لتنعش أرواحهم العليلة ، وتبعث فى نفوسهم عظيم الآمال ، وترد إليهم الشعور بالخير ، وحلاوة الكون التى غابت عنهم ، لأنهم ربما لو تأملوا فى أشكال الزهر ، وألوان الورد ، وتنسموا أسحار روائحها ، وعجيب شذاها ، وتمعنوا فى عميق معانيها ، لربما كفوا أيديهم عن الأذى وشرور الدنيا ، وسعوا فيها بالخير والإصلاح، وفهموا أن الزمان يضع سره فى رقيق الزهر ، وضعيف النبت، ليعتبر الناس الاعتبار ولا يظنوا بدوام الازدهار ، لأن للزهر سلطان على النفس لايدانيه إلا سلطان الوجد والعشق .

عندئذ، كانت ترى فى منامها جلباب السجن البغيض ، ذا اللون الأبيض،

وقد تبدل عليها ، ليصبح ذا ألوان بهيجة حمراء وزرقاء وصفراء، كألوان الزهور وأن أكاليل من الريحان الأخضر قد غطت شعرها ، فتسكن روحها عندئذ ، وتهدأ هواجسها ، التى طالما تظل تلازمها حتى فى نومها ، بحكم ذلك الداء القلبى الذى تعلم أنه سيفنيها يوماً لامحالة ، قبل أن يسمح لها الزمان بملاقاة حسن .

هتف حسن بقلق من مكانه البعيد .

– مالك .. سرحت بعيداً .

– أبداً .. طوّح الورد ياحسن .

قُبل الصحبة الجميلة ، التى أعدها لها ، لامس راحته بشفتيه ثم لوح بها فى الهواء ، وفرد ذراعه بالصحبة المتوهجة بألوان البلدى ، الأحمر والأصفر والأبيض ، مطوحاً بها عالياً فى اتجاه الشباك .

إِلهِ النَّاسِ

رغم برد شهر طوبة ، ودخول الليل فى ربعه الأخير ، إلا أن الفرح ظل مستمراً، واستمرت معه الخمور والحشيشة ، تلعب ألعابها المجنونة برؤوس الجميع ، بما فى ذلك الحجاج المعدودين الذين حجوا ، والحجاج العديدين الذين لم يحجوا . إضافة إلى أولئك الذين لايفكرون فى الحج على الاطلاق ليقينهم العميق بأنهم لن يستطيعوا اليه سبيلاً، وكانت حمى الرقص قد تزايدت إلى حد كبير ، عندما أخذ مطرب العرس الوحيد يرفع عقيرته قدر المستطاع بأغنية «كتبوا كتابك يانقاوة عينى» ، ولم تمنعه بحة صوته من الاستمرار فى الغناء الزاعق ، ليصل صوته الى أبعد مايمكن ، نظرا لانتهاء الوقت المسموح به حكومياً لاستخدام مكبرات الصوت الكهربائية، أما العروس والعريس ، فقد لفهما فرح غامر ، ونشوة طاغية لأسباب كثيرة ، من بينها ، أنهما للمرة الأولى وربما الأخيرة يكونان على هذا النحو فى بؤرة الاهتمام والضوء ، صحيح أنه لم يكن هناك ورود ولا زهور ، ولا طعام أو شراب تستحق الذكر ، اللهم إلا قطع من الحلوى الرخيصة ، وزعت كيفما اتفق مع أكواب من شراب الورد البلدى الأحمر المخفف إلى أقصى حد ممكن ، ليكفى أكبر كم من المدعوين ، إلا أن ذلك لم يحل بين الحاضرين ، والبهجة الغامرة ، التى أخذتهم ، والمدعمة بحبل من اللمبات الكهربائية

الملونة ، علق ممتداً بعرض الحارة ، ابتداء من واجهة بيت العروس حتى البيت المقابل له بالإضافة إلى عدة أعيرة نارية ، أطلقت على سبيل التحية من غدارة الحاج سعيد الفواخرى ، وكانت الفرقة الموسيقية المصاحبة للمطرب ، هى سيدة البهجة بلا منازع، رغم أن طبالها الأعمى ليس له إلا أصابع أربعة فى يمناه وأن عازف الأكورديون العجوز لم تعلق بذاكرته طوال تاريخه الفنى المغمور ، سوى ثلاثة ألحان قديمة تعود إلى أيام الموسيقى الشعبى ذائع الصيت حسب الله ، لكن على أية حال لم يمنع ذلك الحاضرين من التعبير عن امتنانهم للمغنى وفرقته ، ومجاملة أهل الفرح وتحيتهم بين الحين والحين . بمبالغ نقدية صغيرة يقدمونها للمغنى ، فيعلنها على الملأ ، بينما يردد خلف صاحبها أسماء الأشخاص الذى يخصهم بتحيته . وتنتهى التحية عادة بمصاحبة جملة موسيقية ختامية شهيرة ، وعبارة «رقصنى ياجدع» .

بينما كان عازف الأكورديون ، يحاول عزف لحن « ياولاد بلدنا يوم الخميس » ، تقدم المعلم فرحات الفرارجى إلى جانب المطرب ، وأوقف الموسيقى والغناء بإشارة من يده ، ثم برم طرف شاربه الشبيه - برأيه طبعاً - بشارب الزيناتى خليفة فى السيرة الهلالية ، وشمر كم جلبابه الواسع، فبدت يده الغليظة بخاتمها الفضى ذى الفص الزجاجى ، وهى تمسك بخمسة جنيهات ، بينما نظراته تتجه إلى خصمه التاريخى فى الحارة الحاج سعيد الفواخرى ، وكان فرحات يرغب حينئذ فى تحية مدوية تتناسب والدوى الذى فعلته الخمر برأسه ، وهى التحية التى كان قد فكر فيها جيداً ، وتيقن أن من المستحيل أن يتجاوزها أحد غيره ، بما فى ذلك سعيد الفواخرى ، وخصوصاً أنها مدعمة بخمسة جنيهات كاملة ، فأخذ يحيى العريس وأهله ، وأهل العروس ، وأصدقاءه وأحباءه فى الحارة، ثم هتف

بحماس فجأة :

– وقبل كل شيء ، وقبل أى مخلوق مهما كبر وعلا ، سيدى وسيدكم، تاج رأسى ، وراسكم ، سيدنا محمد عليه أجمل الصلاة والسلام .

سرت همسات الصلاة على النبى بين جميع الحضور ، وكذلك فعل المغنى، والطبال ، وعازف الاكورديون ، الذى حاول تذكر لحن «أنا نفسى أزورك يانبى وأقول مدد» دون جدوى ، فلما ساد هدوء مؤقت ، استأنف الفرارجى تحياته قائلاً :

– سيدنا النبى ، يعنى أجمل وأجدع نبى فى الدنيا ، النبى العترة ، رسول الله وحبيبه ، الطاهر الشريف ، أبو لسان حلو ، ينقط منه العسل والسكر .

لم تتوقف الصلوات على خاتم الأنبياء وسيد المرسلين فاستمر الفرارجى فى كلامه :

سيد الخلق ، أبو كلمة واحدة وضمير أبيض من الفل لايعجبه أبداً الحال البطال ، وماغش أى مخلوق ، ولا مشى فى سكة الحرام ، ولم يتستر على الكلام الفارغ أو يسكت على الناس المشتغلة فى الممنوعات .. ألف صلاة وسلام عليه ، رقصنى ياجدع .

غلى الدم فى عروق الحاج سعيد الفواخرى الذى لم يكن قد حج أبداً وكاد أن ينفجر عيظاً ، لأنه فهم فوراً الغمز واللمز عليه ، الذى قاله فرحات الفرارجى ، إضافة إلى مادفعه من جنيهات ستضطره ولا بد للمزايدة عليه ، ودفع مبلغ أكبر منه للمغنى ، ليبدو فى المقام الأعلى ، والأكثر غنى ويسراً أمام أهل الحارة . أخذ يفكر بتحية كبيرة وخطيرة ، تفوق تحية غريمه التى قدمها منذ قليل ، فلم ينتبه للرقص الدائر على أغنية «ياصلاة الزين على عزيزة ياصلاة الزين» ، التى فاجأ عازف الأكورديون الناس بعزفها ومعهم

المغنى ، بل وفاجأ بها نفسه قبل أى إنسان أخر . وبينما الحاج سعيد الفواخيرى يقدح ذهنه بحثاً عن سلام عظيم وتحية كبيرة ، تفتق ذلك الذهن الضعيف الخيال عادة ، عن فكرة بدت له جهنمية ، فبصق على الأرض ، ورفع عمامته قليلاً ثم هرش رأسه وسار مسرعاً إلى حيث يقف المغنى واشار له بيده ليسكت وبدأ فى تحية أهل العريس والعروس كما هو معتاد ، ثم تفرس فى الوجوه بقوة ليشد انتباههم، ودون التفات إلى فرحات الفرارجى قال :

– وقبل أى سلام ، أو كلام ، أو تحية أى مخلوق أو إنسان ، أنا أقول : ربنا ، ربنا المعبود ، ربنا يعنى كلنا عبيده ، وكلنا نسبح بحمده ، ويسبح بحمده كل من عليها من طير أو حيوان ، وربنا هو العالم بنية كل مخلوق ، وبصاحب القلب الأبيض ، وصاحب القلب الأسود ، وهو « فوق كل ذى علم عليم » ، وهو العظيم ، الجبار ، المنتقم ، العارف والشايف لكل كبيرة وصغيرة ، حتى دبة النملة على الأرض ، وكاشف نية كل مخلوق وكاشف النفر المؤذى العاوز يوسخ سمعة الناس ، وهو العيب كله فيه والحرام كله صادر منه .

ربنا عارف كل واحد ذيله نجس ، كل واحد يجرى وراء النسوان ، عالم ولا إله غيره ، بالغشاشين ، بالسراقين فى الميزان ، عارف كل واحد يزقم الحيوان بالعيش المبلول ليزيد وزنه ، وعارف كل واحد يبيع الحيوان المريض للناس وفيه الضرر ، وأنا أقول "العين بالعين والسن بالسن والبادى أظلم" ، وأقول قبل كل شيئ لغاوى الشر .. أنا جاهز .. والجدع يبان لى ، ومن قال كلمة يكون قدها ، أو يمشى جانب الحيط أحسن له ، والكل سامع .. وقد أعذر من أنذر .. رقصنى ياجدع .

تجمعت نذر الغضب داخل فرحات الفرارجى ، وبدا واضحاً تماماً له

وللجميع ما قصده الفواخرى ، الذى كان فرحات قد غمز ولمز إلى بيعه الممنوعات والمخدرات ، وها هو يحاول أن يكيل له الصاع صاعين ، وشعر وكأنه أفاق من تأثير الخمر ، وأنه لابد وأن يرد الإهانة ، ويرى غريمه من الأقوى فى الحارة ، وقال لنفسه : سوف أربيه ، وأريه من يكون فرحات الفرارجى ، سأضربه حتى يخر الدم منه ، ويقول إن الله حق ، ويمشى جنب الحيط . شمر عن أكمامه ، رسم على وجهه علامات الشر ، وغابت البهجة من داخله ، فلم يعد يستمع إلى الغناء والموسيقى ، ولم يعد يرى الرقص المتزايد أمام ناظريه ، وأشار إلى عدد من رجاله ليبدأو فى رفع الكراسى والضرب ، ولكن فجأة ، وبدون أن يحسب أحد حساب ذلك ، انهمر المطر بسرعة ، غزيراً ، وفق رؤوس الحضور أجمعين.

ساد الهرج والمرج ، تضاحك الأطفال ، زغردت النساء ، وبدأ الجميع فى الجرى والاختباء ، وأعلن المغنى انتهاء الفرح ، وهو يحمى رأسه بيده، وحمل العريس عروسه فاراً إلى أقرب بيت ، بعيداً عن شلالات السماء المنصبة فوق رأسيهما ، بينما كانت سنية الغلبانة بائعة الجبن القريش تضحك وتقول :

– طبعاً ربنا أرسل المطر عليهم ، حتى يتأدبوا ويعرفوا أن الله حق ، والهزار فى الموضوعات الكبيرة حرام .. أصلهم كانوا كما ناكر ونكير .

ثم أحكمت طرحتها على رأسها وجرجرت ساقيها، وسارت لتختبئ من المطر هى أيضاً .

الذهاب إلى حديقة الحيوان

سطعت الشمس فجأة ، بعد أن ألقت غيوم ذلك اليوم الشتوى البارد بنفسها زخات مطرية خفيفة على الأرض ، فبانت السماء زرقاء باهية الجمال، حتى أن «طيف» تنبهت بعد أن رفعت عينيها عن الأوراق ، التى كانت تحررها ، وهى تجلس على مكتبها لترمى ببصرها بعيداً عبر النافذة الزجاجية القريبة منها فتنهدت ثم قالت لروحها :

– آه .. لو اروح لجنينة الحيوانات ، اتمشى فيها ساعة ، أو ساعتين مع أى إنسان ، لأن الجو جميل فعلاً والشمس عروسة منورة .

داخلها شعور متزايد ببرودة الغرفة ، التى تعمل فيها ، مع تسعة موظفين آخرين ، وبكآبة إضاءة مصباح الفلورسنت الأبيض ،الذى ينيرها، وببشاعة المكاتب الحديدية ، ذات اللون الرمادى الكابى ،التى يصطدم بها النظر ، أينما تولى فى المكان ، وجالت برأسها فكرة : إن هذا المكان جدير بمشرحة لجثث الموتى ، لذلك تحمست أكثر لمغادرة العمل ، والذهاب إلى حديقة الحيوان .

لمت أوراقها كيفما اتفق ، معيدة إياها إلى درج المكتب ، ثم سوّت شعرها بيديها ، وحملت حقيبتها لتتجه إلى زميلة لها كانت تجلس فى الركن المقابل من الحجرة ، وهى الزميلة الوحيدة التى تستلطفها «طيف» من بين كل

العاملين معها ، بسبب كونها مهذبة ورقيقة كما أن لها طريقة جميلة خاصة فى اختيار ملابسها بالنسبة للباقين ، فهمست لها برقة وحماس :

– سيبى الشغل يا «كريمة» وتعالى نروح جنينة الحيوانات فالشمس فى السماء عروسة منورة ، والجو رائع يرد الروح .

ولما كانت «كريمة» مشغولة ، ساعتها ، بالبحث عن خطاب ضائع من خطابات العملاء ، الذين تتعامل معهم الشركة ، التى تعمل فيها مع «طيف»، فقد رفعت رأسها ناظرة إليها ، بدهشة ، وقالت :

– ياحلاوة ؟!

ثم سكتت ، معاودة البحث عن الخطاب المفقود ، الذى كان ضرورياً أن تجده ، لأن مديرها قد عنفها منذ قليل بسبب فقده، لكن «طيف» قالت لها بصوت خفيض، مرة أخرى : بصى ، شوفى ، السماء صافية بشكل مدهش، والشمس سخية ورائعة ، ونحن نجلس هنا فى هذه الحجرة الباردة الكئيبة، تعالى وحياتك نروح جنينة الحيوانات .

ضحكت « كريمة » ضحكة عالية ساخرة غير مصدقة أن «طيف» تتحدث فى الموضوع بجدية وحماس ثم أنها حركت يدها ، حركة خفيفة تدل على أن زميلتها قد خف عقلها وطار وقالت لها :

– اعقلى ياهبلة ؟!

شعرت «طيف » أنه لاجدوى من اقناع « كريمة » بالذهاب معها إلى حديقة الحيوان ، فتركتها تبحث ، كيفما تشاء ، عن الخطاب إياه ، وسارعت تهبط درج المبنى الكبير ، الذى تحتل الشركة ، الطابق الخامس منه ، دون استخدام المصعد لأنها تعرف أنه معطل دوماً ، ولا جدوى من اصلاحه، بسبب تزايد الضغط عليه نظراً لكثرة مستخدميه من المتعاملين مع الشركات والمصالح الحكومية الكثيرة ، التى يضمها المبنى، لذلك فقد راحت تتجنب الاحتكاك بالناس ، الذين كانوا مثلها هابطين الدرج أو صاعدينه لإنجاز

شئونهم فى المبنى خلال هذا الوقت المبكر من اليوم، لكنها ورغماً عنها اصطدمت برجل كان يصعد الدرج بينما كانت تهرول هابطة إياه، فقالت له:

– آسفة .

رد الرجل بابتسامة بشوشة طيبة ، فهمت «طيف» منها أنه رضى باعتذارها ، ثم سألها عن الطابق الذى تقع فيه ادارة الضرائب ، لأنه يريد أن يخفف الضرائب المفروضة عليه ولاحظت «طيف» أن له وجهاً مستديراً ورأساً صغيراً يشبه رؤوس القطط ، التى تراها فى الطرقات، فتحمست وسألته أن يذهب معها إلى حديقة الحيوان لأن الشمس ساطعة والسماء بالغة النقاء والزرقة، لكن الرجل الذى لم تلحظ «طيف» أن له كرشاً سميناً أيضاً ، ويرتدى ملابس أنيقة أناقة تليق برجل أعمال، نظر إليها مبتسماً ابتسامة من نوع أخر تختلف عن تلك التى رأتها على وجهه عندما اعتذرت له، و قال لها بينما كانت نظرته تجول فى معالم جسدها :

– اكتبى عندك رقم تليفونى ، واتصلى بى بعد الساعة التاسعة غداً، لأنى مشغول اليوم جداً .

بهتت « طيف » وتجاوزته عابرة الدرج مسرعة دون أن تقول له أن الشمس رائعة والسماء بالغة الزرقة والنقاء مما يجعل الذهاب إلى حديقة الحيوان من أجمل الأشياء، التى يتحتم على المرء أن يفعلها الآن ! وكانت مستاءة جداً ، حتى أنها لم تعر انتباها لكل أولئك الذين تمتموا مستنكرين أو أعربوا عن تبرمهم بينما كانت تتجاوزهم مسرعة، فلما أصبحت خارج المبنى حيث الميدان الفسيح ، الذى تصب عنده عدة طرق طويلة تتمدد فى أرض المدينة ، تنفست الصعداء وقالت لروحها مرة أخرى بينما أخذت تتطلع الى أعلى : فعلاً الشمس رائعة والسماء بالغة الزرقة والنقاء.

سارت قليلاً فى الطريق تفكر فى إنسان ترافقه وتمضى معه بعضاً من الوقت فى حديقة الحيوان لتشعر بالسعادة وبمزيد من الدفء، وبينما هى تفكر، اقتربت منها سيدة أنيقة لها عيون داكنة تشي بالصدق والطمأنينة

وسألتها أن تدلها على عنوان أحد المحلات الشهيرة بالمدينة لأنها غريبة عنها ولا تعرف سبيل الذهاب إليها ، فدلتها «طيف » على مكانه بلطف ، ثم فكرت بسرعة ، ودعتها للذهاب معها إلى حديقة الحيوان .

انقلبت سحنة المرأة ، ولاح على ملامحها غضب من أهين فى شرفه وكرامته، وراحت تنهر « طيف » بعنف قائلة لها أنها سيدة محترمة ، بل وهددتها بابلاغ البوليس ، إن لم تبتعد عنها فوراً ، فخافت «طيف » وعجزت عن توضيح وجهة نظرها فى الذهاب إلى حديقة الحيوان ، لأن المرأة سارعت بمفارقتها وهى تسدد إليها نظرات الاحتقار ، مما جعل «طيف » تفضل العبور إلى الطرف الآخر من الميدان ، حيث وجدت شحاذاً كهلاً جالساً على الأرض يمد يده طالباً حسنة ، فأعطته قروشاً تناولها منها بلطف وشكرها على حنوها وانسانيتها ، عندئذ استبشرت به خيراً وسألته بحماس أن يرافقها إلى حديقة الحيوان بدلاً من جلوسه هكذا فى الطريق ملتصقاً بالأرض ، بعيداً جداً عن السماء، التى هى بالغة النقاء والزرقة والشمس تشع فيها بهاءها الذهبى الآخاذ .

حوقل الشحاذ واستعاذ بالله من الشيطان وداخله ضيق حقيقى لأنه أحس أن الفتاة الواقفة أمامه تسخر منه بكلامها ، وقال لها أنه شحاذ فقير رزقه على باب الله ولا حول له ولاقوة ، وعلى المرء الا يفسد صدقته بالسخرية ، ثم أنه رمى لها بفلوسها وتركها واقفة فى مكانها حائرة لأنها لم تتمكن من اقناعه بضرورة ترك مكانه والذهاب معها الى حديقة الحيوان .

مشت حزينة مستغربة من أحوال الناس فى هذه المدينة ، الذين يدهشون ويسخرون بل ويغضبون لشىء بسيط جميل مثل دعوة للذهاب إلى حديقة الحيوان وهى أجمل مكان بمدينتهم، التى أصبحت مليئة بالبنايات العالية والمحلات الكثيرة التى تجعل الناس ينسون التطلع الى السماء ، بل فكرت أيضاً فى كيفية احتمالهم لحياتهم ، التى تمضى يوماً بعد يوم فى شوارع قذرة كئيبة وبيوت متداعية بالية وحجرات باردة يضطرون لإضاءتها فى

وضح النهار بنور الفلورسنت الأبيض المقيت ، وإذ هي تفكر سائرة لا تلوى على شيء اصطدمت قدمها بكرة صغيرة لطفل يلهو فى الطريق ، وعندما جاء ليأخذها انفرج فمه عن ابتسامة رائعة جعلت قلبها يخفق مثلما خفق فى اللحظة التى رفعت رأسها فيها عن الأوراق ورأت الشمس فى السماء فسعدت وفرحت وانقشعت غيوم الحزن عنها وسألته دون تردد أن يرافقها إلى حديقة الحيوان .

فرح الطفل وطفق يصفق بيدية وراح يحجل برجله كعصفور وجد حباً على الأرض ، ثم قال لها أنه يحب دوماً الذهاب الى حديقة الحيوان بينما اقترب منها ممسكاً بيدها ناظراً إلى عينيها كما لو كان يرغب فى احتضانها وتقبيلها، وأضاف بصوت برىء :

- يا الله نروح على طول .

لم تجد «طيف » ضرورة لأن تقول له لماذا تريده أن يذهب معها إلى حديقة الحيوان لأنها شعرت أنه مستوعب تماماً ولا يحتاج إلى كلام فى الموضوع ، ثم أنه لاداع لإضاعة مزيد من الوقت فى الكلام ، وبدأت تخطو برفقته فى الطريق المؤدى إلى حديقة الحيوان ، بينما كان يسبغ دفء يده على يدها وتنتعش روحها بروحه الجذلة ، التى جعلتها تشعر بسعادة لاحدود لها لكن ، وبينما هما يستعدان لعبور الشارع برزت من نافذة فى المبنى الذى جمعتهما الصدفة تحته امرأة مشوشة الشعر مترهلة الجسد قالت بصوت آمر بينما كانت يديها قد بدأتا تنشغلان بتعليق غسيل على الحبال .

- اطلع بسرعة ياولد ، وإلا والله أنزل وأكسر دماغك .

نظر الولد حزيناً إلى عينى «طيف» ، سحب يده من يدها متنهداً بحرارة وخرج صوته مكسوراً وهو يقول :

- طيب .. طالع بسرعة ياماما .

إذ حلق عالياً في السماء

بدا له ماحدث غريباً جداً ، مما جعله قلقاً ، حائراً ، يتطلع بخوف ، وعصبية إلى كل ماحوله من أشياء ، ولم يكن يدرى مالذى سوف يحدث له بعد ذلك ، لكن ماكان يطمئنه قليلاً ، هو تلك المرأة العجوز ، التى يعرفها وطالما اعتاد وجهها عندما كان يراها تأتى كل صباح ، فتفتح النوافذ ليدخل الهواء الرطيب ، الذى ينعش روحه ، ويأخذ فى مراقبتها وهى تروح وتجىء داخل الحجرة منظفة ماانتسخ ، ومرتبة الأشياء فى أماكنها المعتادة وخصوصاً تلك الكبيرة منها، التى يأتى بعض الناس فيجلسون عليها أحياناً، وينظرون إليه بابتهاج ، والقطة البيضاء ، ذات الفراء الطويل ، تجلس قبالتهم تهر كعادتها ، وهى تفتح عينيها ، وتغلقهما بين الحين والحين، كلما تعالت الأصوات حولها .

لم يفهم أبداً لماذ أعطوه لهذه العجوز لتحمله معها ، وتذهب به بعيداً عن تلك الحجرة الفسيحة ، التى عاش فيها ، وحفظ عن ظهر قلب تفاصيل مابها من أشياء وخصوصاً ذلك الشيىء الذى كان معلقا أمامه على الجدار ، لايكف عن الحركة ، وإصدار الصوت : تيك ، تيك ... تيك، تيك ، ويدق دقات عالية من وقت لآخر ، فتأتى إليه السيدة ذات الشعر الأسود الطويل، وتنظر إليه ، وتعود مسرعة لتنشغل بأشيائها ، أو تنظر من الشباك ، وتتحادث مع أبنائها ، الذين يلعبون فى الخارج ، منادية عليهم ليعودوا إلى البيت ،

فيقبلون عليه بمجرد أن يصلوا إلى الحجرة ، ويصفرون له مداعبين مما يجعله يتقافز بسعادة ، ويجاوبهم بصفير طويل ، ثم يأخذ فى التقاط مايقدمونه له من حَبّ .

كانت العجوز التى تحمله لاتقل عنه قلقاً ، إذ أنها ظنت فى البداية أن من الرائع امتلاك المرء لعصفور جميل مثل هذا العصفور ، لذلك فقد قبلته فور أن عرضت عليها صاحبة البيت أن تأخذه ضمن ماأعطته لها من ملابس قديمة ، وأوانٍ ، وأشياء أخرى لم تعد بحاجة إليها ، لأنها ستسافر مع زوجها وأولادها ، وتترك البيت ؛ لكن العجوز ، بعد أن حملته معها ، فكرت فى أنها ربما لم تكن من الحكمة بما يكفى، فلم تفكر ولو قليلاً قبل أن تأخذه؛ وشعرت أنها تسرعت فى ذلك بعض الشىء .

بينما كانت تعبر به شوارع الحى الراقى من المدينة ، متوجهة إلى الحى الذى تسكن فيها ، ظل قلب العصفور يخفق بشدة من الخوف والرعب ، إذ أنه وباعتباره عصفوراً عاش فى قفص فى ذلك البيت منذ لحظة ميلاده حتى هذا الوقت، لم يكن قد رأى شوارع من قبل أبداً ، ولا بنايات ضخمة عالية ، ولا أناساً كثيرين سائرين فى الطرقات ، بينما الضجيج الرهيب ، الذى يضيع صوته فيه لو حاول أن يصفّر قليلاً ، لاينقطع أبداً .

لم يكن قد رأى كل ذلك من قبل ، فحتى عندما كانت السيدة تذهب وأولادها ، وتغيب عن البيت لأيام قليلة ، تعود بعدها ولونها محمر قليلاً بما يشبه لون ريشاته التى عند الذيل ، فإنه كان يظل فى مكانه بالحجرة الواسعة، وتعوده العجوز فتنظف له القفص ، وتضع له الحب والماء. كان مايرعبه أكثر ، أثناء سير العجوز به فى الطريق ، تلك القطط النحيلة القذرة، التى صادفها ، فأخذت تتطلع إليه بعيونها اللامعة البراقة ، وهى تمد ألسنتها الحمراء الخشنة ، فتلحس فراءها وتتلمظ ، وبما أنه لم ير قططا على شاكلتها من قبل أبدا ، فقد داهمة الرعب ، إذ تصور أن يفتح باب

القفص فجأة ، لسبب من الأسباب ، فتقترب منه واحدة من هذه القطط الشوارعية ، وتنقض عليه دون رحمة ، ولذلك داخله الحنين للقطة البيضاء، التى ألفها فى الحجرة الفسيحة ، التى عاش بها قبل ذلك ، إذ كانت تأتى مقتربة من القفص ، مكتفية بالنظر إليه ، ومتابعة حركاته وهو ينط، أو يلتقط الحب بمنقاره ، دون أن تحاول مسّه أو أن تجْرؤ على مديدها اليه ، وخاف أن تتركه هذه السيدة وحيداً وتمضى بدونه .

عندما وصلا إلى بيتها ، فكرت العجوز فى المكان الأفضل ، الذى يتوجب عليها أن تضعه فيه ، هل تدق مسماراً بالقرب من النافذة لتعلق فيه القفص؟ أم تضعه قبالة السرير ، ليطالعها منظره الجميل كلما صحت من نومها ؟ ، ثم فكرت أن تضعه على المنضدة القديمة بركن الحجرة ، المسنودة بقوالب من الطوب حتى تتوازن ، لكنها سرعان ماتخلت عن هذه الفكرة لأنها تتطلب منها أن تجد مكاناً آخر لعلب السمن والسكر والشاى ، وللأطباق والأوانى الموضوعة عليها ، ولكل تلك الأشياء الأخرى ، التى تجلبها عادة من البيوت ، التى تعمل فيها ، وبعد أن جلست على السرير قليلاً ، ريثما تستريح من صعود السلم العالى ، الذى تضطر لصعوده حتى تصل الى حجرتها الصغيرة ، الواقعة على السطح ، فكرت فى بيع العصفور بقفصه ، وكانت قد وضعته قبالتها ، واقترحت أن تعرضه على جيرانها فى البيت ، أو على بعض أولئك الذين تعرفهم فى الشارع ، فلما تذكرت أحوالهم ، وماتحويه منازلهم من أشياء قديمة بالية ، وشكواهم الدائمة من ضيق الذات اليد ، اكتشفت أن من السخف أن تطالبهم بشرائه بأى حال من الأحوال .

من موضعه داخل القفص ، راح يجول بعينيه القلقتين داخل الحجرة الصغيرة ، فهاله لون حيطانها الباهت، والأشياء الكثيرة القذرة المبعثرة هنا وهناك ، ولم تفارق أنفاسه تلك الرائحة العطنة الفائحة فيها، والتى اشتمها بمجرد دخوله من الباب ، أما ماجعل صدره ينقبض بشدة فهو ذلك

الصرصار الكبير ، الذى أخذ يقترب من القفص، فتحسر على أيامه الخوالى، بكل متعها ، وماعاشه خلالها فى تلك الحجرة الواسعة القديمة، التى تمنى لو أعادوه إليها مرة أخرى ، لينعم نظره بالنباتات الخضراء الجميلة المتسلقة على جوانب حوائطها ، والموضوعة فى أركانها ، وبتلك الزهور الملونة البهيجة، التى كانت تضعها بين يوم وآخر السيدة ذات الشعر الأسود فى آنية على المنضدة الكبيرة ، وإذ تذكر ذلك شعر بغم وحزن شديدين ، وراح ينقر ريشه فى قلق ، ناويا إطلاق حنجرته بصفير مؤس لحاله البائسة ، لكن العجوز ، قامت من مكانها على السرير ، وأحضرت له جفنة ماء ، وجفنة أرز ، وضعتها أمامه برفق فى القفص ، فاطمأنت نفسه قليلا ، بعد أن أخذ يعب الماء عباً ، لأنه كان عطشاً للغاية بسبب حرارة الجو والفترة الطويلة التى بقى فيها دون ماء بالطريق ، ثم أنه حمد الله لأن الأمور لم تسر على نحو أسوأ مما كان يظن .

وهى تعد طعاماً لتأكله ، قالت العجوز لروحها : من الأفضل أن أسرح ذلك العصفور ، فوقتى مخنوق جداً ، وهمى كافى ، ومغنى عن هم غيرى ، فأنا أخرج عند طلعة الصبح ، ولا أرجع من شغلى إلا بعد غروب الشمس والعصفور يحتاج إلى أكل وتنظيف ، وطاقتى وصحتى ، لاتساعدانى على الصعود والنزول باستمرار ، ثم أنى لا أجد أية متعة فى حبس طير أعجم، لاحول له ولاقوة ، فى قفص طوله ربع متر وعرضه ربع متر ، ولاأفهم أبداً مايحبه الناس فى حبس العصافير ؟! . والله لأسرحه لحال سبيله قبل خروجى بكرة ، إن شاء الله ، وربنا ينولنى ثوابه لأنه روح على كل حال .

لما فتحت العجوز شباك الحجرة الوحيد، ذا الحافة العريضة ، فكر العصفور وهو ينظر إلى سرب من الطيور يعبر السماء مزقزقاً ، فى أنه لم يفكر فى العصافير الأخرى من قبل أبداً ، صحيح أنه كان يراها قبل ذلك من موضعه فى الحجرة الواسعة القديمة ، كلما كان الشباك الكبير الواسع

مفتوحاً ، لكنه لم يفكر فى كونها لاتعيش فى أقفاص مثله ، بل تطير فى السماء ، وقال لنفسه عندما تذكر شوارع المدينة الصاخبة ، وقطط الطريق : يالها من طيور بائسة ، معرضة للهلاك فى أى وقت ، لأنها بلا أقفاص تحميها ، كما أن أحداً لايقدم لها الطعام مثلما يُقَدّم له، ورغم تزايد حسرته على حياته الأولى فى الحجرة الفسيحة الجميلة ، إلا أنه كان ممتناً جداً لأنه رغم الأهوال التى رآها شوارع المدينة ، مازال يعيش فى قفص ، ومازالت هذه السيدة العجوز ، التى يطمئن إليها ، تقدم له الطعام ، حتى لو كان أرزاً وليس برغلاً جميلاً من النوع الذى يحبه ، والذى كان يقدم له قبل ذلك فى الحجرة الجميلة .

فى الصباح ، لما بزغت الشمس ، قامت العجوز من نومها وارتدت ملابسها متأهبة للخروج ، وقبل أن تذهب الى عملها ، فتحت القفص ، وأمسكت العصفور بيدها ، ووضعته على حافة الشباك ، وهى تبتسم ، وقبل أن تغلقه جيداً ، بعد أن تركت الطائر وحيداً ابتسمت مرة أخرى ، وقالت له: مع السلامة .

وقف العصفور على حافة الشباك المغلق خلفه ، لايدرى إلى أين يذهب ، وما الذى عليه أن يفعله ، كان يشعر فى حقيقة الأمر وكأن كارثة قد حلت به، إذ لم يكن أمامه على طول المدى غير السماء الواسعة، وتحته البيوت القديمة الرمادية ، التى كلما نظر إليها داخله الرعب ، بسبب القطط العديدة المتسلقية هنا وهناك ، على أسطحها ، تحت أشعة شمس الصباح الدافئة ، حاول أن يفعل شيئا فحرك جناحيه قليلاً ، ونط نطات بسيطة مثلما كان يفعل فى القفص ، ثم طار غير مبتعد عن الشباك كثيراً ، لكنه سرعان ماعاد ليحط على حافته العريضة، ويستقر فوقها مرة أخرى ، بعد أن تملكه رعب شديد ، لأنه شعر فى طيرانه المحدود بالهواء والفراغ الذى سبح فيه لأول مرة فى حياته كلها ، التى لم يغادر خلالها القفص أبداً ، ثم وصل القلق

بداخله إلى حد عظيم جعله ينقر بعنف الشباك المغلق على أمل أن تعود العجوز فتفتحه ، وتحمله الى داخل قفصه الأثير مرة أخرى ، لكن أحداً لم يأت اليه ، رغم نقراته الكثيرة ، المتكررة ، ولم يسمع أى صوت من جهة الشباك ، غير صوت نقره اليائس ، الذى أوجع منقاره الصغير ، فكف عن ذلك ناعياً حظه العاثر ، الذى جعله ينتهى إلى هذه الحالة المؤلمة القاسية ، .. إلى أن يدفع إلى حافة شباك صغير ، ليس أمامه إلا السماء الواسعة ، وليس تحته إلا البيوت الكئيبة ، وراح يبحث بعينيه فى المكان عن موضع يختبئ فيه، أو قفص صغير يلتجئ إليه ، فلما لم يجد غير المنظر الذى رآه منذ أن وضع على حافة الشباك ، أطلق عقيرته بلحن حزين باك ، كان عزاءه الوحيد خلال تلك اللحظات .

.. وهى سائرة فى شوارع المدينة إلى عملها ، فكرت العجوز فى العصفور ، وقالت لروحها : لعله سعيد الآن سعادة لاحد لها بعد أن أطلقت سراحه ، وكانت فى الحقيقة سعيدة بنفسها أكثر ، لأنها قررت فك أسره بسرعة ، ولم تعطه لواحد من أولاد الجيران كما راودتها فكرة بعد أن طبخت وجلست تأكل ، فالعيال يلهون بالعصافير ويعذبونها ، بل ويقتلونها عادة فى الحى الذى تسكن فيه ، وقد رأتهم عدة مرات يفعلون ذلك مع العصافير التى يأتون بها من الأشجار الموجودة بالقرب من النهر ، أو يعثرون عليها بالصدفة عندما تكون صغيرة وتقع من أعشاشها، وكان شعور السعادة يزداد بداخلها ، إذ ظنت أنها منت على ذلك العصفور بالحياة ، وأنقذته من هلاك محقق ، لو أخذه واحد من هؤلاء الصبية العابثين ، لكن هاجسها الوحيد بشأنه كان التفكير بالمسافة الطويلة التى سيضطر لقطعها فى المدينة حتى يستطيع العثور على شجرة مناسبة يحط عليها ويتخذها مأوى له ، إذ أن حيها الذى تعيش فيه خال من الأشجار تقريباً ، بل أن المدينة كلها باتت الخضرة تغيب عنها شيئاً فشيئاً .

لعن العصفور العجوز في سره ألف مرة ، وكان يشعر تجاهها بحقد وغضب هائلين ، لأنها تخلت عنه هكذا ، وتركته وحيداً على حافة الشباك، دون طعام أو شراب ، والشيء الذي كاد أن يجعل رأسه ينفجر من شدة الغيظ ، هو أن السيدة ذات الشعر الأسود الطويل ، تخلت عنه في اليوم الفائت ببساطة ، لاتقل عن البساطة التي تخلت بها العجوز عنه، فالسيدة الأولى كانت تحبه كثيراً ، وتطعمه بنفسها في أحيان كثيرة، بل كانت تجيئ بأصدقائها أحياناً لينظروا إليه ، ويتأملوا ريشه الملون الجميل ، فيمدوا أصابعهم إليه في قفصه مداعبينه ، فينقرهم بمنقاره المدبب نقرات خفيفة على سبيل التحية والدعابة ، فلما وصل بتفكيره عند هذا الحد ، داخلته رغبة حادة في البكاء ، إذ تذكر ماضيه الجميل ، بينما بدأ الجوع والعطش يعزفان لحناً وحشياً في داخله ، فحن إلى استعادة قفصه الأبيض الجميل ، الذي ألفه وعاش فيه طيلة عمره ، واشتهى ماءً بارداً عذباً ، وحباً لذيذاً يصد الغول الناهش في أحشائه الصغيرة ، لكنه لما لم يجد غير السماء الفسيحة الممتدة أمامه ، والبيوت الرمادية الموحشة تحته ، صفر صفيراً عالياً حزيناً ، ناعياً حاله ومصيره المجهول.

قضى نهاره على هذه الحال ، لايكف عن التفكير في الماضي والتحسر عليه ، دون أن ينتبه للشمس التي توسطت كبد السماء ، ثم انحرفت قليلاً قليلاً ، حتى استأذنت في الغروب فاتحة ذراعيها للمساء ، عندئذ انتبه العصفور الملون الصغير ، إلى طيور كثيرة تحلق في السماء آيبة الى أعشاشها في الطرف البعيد من المدينة ، حيث أشجار النهر ، وكانت زقزقاتها تتعالى سعيدة مبتهجة ، وهي تغطي بألوانها البيضاء مساحات من الأفق الملّون بالشفق الأحمر الذهبي ، فقال العصفور لنفسه : لماذا لا أجرب أن أطير مثل هذه الطيور الكثيرة المبتهجة ، المحلقة بعيداً في السماء ، وقال لنفسه أيضاً: ربما لو طرت ، لوجدت في مكان آخر قفصاً أبيض جميلاً

مليئاً بالطعام والشراب ، كذلك القفص الذى عشت فيه ، وتكاد روحى تتمزق حنينا إليه ، وهكذا أخذ يفرد جناحيه ، قليلاً، قليلاً ، تاركاً جسده الرقيق ملكاً لنسمات الغروب الخفيفة ، لتحمله برفق وحنان ، وإذ أخذ يضرب الهواء بجناحيه أكثر وأكثر ، كانت تتسرب إلى روحه متعة طاغية ، لم يذق مثلها من قبل ، أشعرته بدبيب آخر للحياة فى داخله، ووجد نفسه يحرك جناحيه أكثر فيعلو ويحلق عالياً .. عالياً فى السماء ، حتى صار هناك .. بعيداً بين السحب ، التى تضاءلت تحتها بيوت المدينة المغلقة بلون المساء ، وفكر فى حياته المنصرمة الضائعة ، وبدا القفص الأبيض الذى عاش فيه كئيباً جداً ، وصغيراً إلى الحد الذى يستحيل معه أن يعيش فيه مرة أخرى .

زهرة المستنقع الوحيدة

كان المستنقع واسعاً كبيراً تنتشر على حوافه أعواد البوص والغاب ، تتخللها النباتات الغريبة الموحشة التى نمت كيفما اتفق ، ومنذ زمن طويل تمكنت الطحالب الخضراء الداكنة الغضة من الانتشار على السطح هنا وهناك إلى الحد الذى لايسمح لنسمة هواء خفيفة أن تهز قطرة واحدة من مياه المستنقع العطنة الآسنة .

ماعدا صوت حركة زاحف كثعبان أو سحلية أو حشرة من الحشرات لبدا المستنقع خالياً من الحياة تماماً، وكان الصمت المهيمن يزيد المكان قبحاً ووحشة ، ويخلف شعوراً بالضجر والكآبة واستحالة العيش .

غير أنه كانت زهرة بيضاء وحيدة ، نمت على الطرف القصى من حافة المستنقع ، وبدت سامقة بديعة بأوراقها المخملية الرقيقة ، أجمل من نرجسة، وأنضر من لوتسة ، لايمكن التكهن من أين جاءت ، ولا كيف نمت وسط ذلك المكان الموحش الغريب ، ولا كيف تجلت فى تمام نضارتها . وبدأ عطرها الرقيق يتضوع حثيثاً ، كموسيقى خافتة تأتى من بعيد .

كانت الزهرة البيضاء ، تلحظ جمالها ، وتستشعر عطرها ، وترقب قبح المستنقع حولها ، فتتحسر قائلة : لسوف ينتهى عمرى القصير فى هذا المستنقع البشع ، والزهور جميعها تتفتح ، وتنشر عطرها ، ويكتمل حسنها، لتجعل الحياة أكثر بهجة وجمالاً ، وهأنذا ، فى هذا المستنقع الكئيب ،

وحيدة كنجمة المساء الأولى ، يتشرب عودى من الماء الآسن ، وتعبر بجانبى خنافس الأرض بلا مبالاة ، وتتشوه صورتى البهية عندما تنعكس على هذا السطح العكر الفظيع ، آه .. ليتنى كنت عصفوراً كعصافير السماء الجميلة فأرحل بعيداً بعيداً عن هذا المكان الردئ ، الذى لاتعرفه الحياة ، ولا ترتحل إليه نحلات العسل ، وفراشات الزهور ، ياليتنى زهرة فى حديقة غناء، أمسى وأصبح على شدو البلابل ، وغناء القبرات ، أو ليتنى ضممت لباقة مع شقيقات ، فأمنح مايمنحه خل لخله وقت التلاقى بعد انتظار .

ثم أن الزهرة الرقيقة تضرعت إلى السماء ، أن تبعث بمخلوق أو إنسان يعبر المستنقع ، فيراها ويأخذها بيد حانية ، فيشبكها فى رأس عروس ، أو يضعها فى إناء جميل ، ليتضوع عبيرها حتى الذبول .

كلما مر الوقت كانت أحزان الزهرة البيضاء تزداد ويمزقها الألم والحسرة لأنها لاتملك أجنحة تحلق بها وتطير بعيداً ، ولاصوتاً تطلقه بالغناء، فيُسمع من بعيد ، ويجذب كائناً يعشق الزهور فيأتى إليها ، بل وكان حزنها يزداد أكثر ، كلما فكرت فى أنها لاتقوى حتى على الصراخ ، وإلا لكانت احتجّت ، وعبرّت عن ضيقها بالمستنقع وهوائه العفن ، ومياهه العطنة التى لاتطاق .

مرت أوقات وأوقات ، وزهرة المستنقع الوحيدة ، المسكينة ، البيضاء ، تنتظر وتنتظر وهى تدرك أنه لاينتظرها إلا الموت كزهرة بائسة مجهولة لم تقع عليها عين كائن من كان ، ولم يلمسها مخلوق منذ ميلادها وحتى انتهاء أجلها .

فى أحد الأيام ، تأملت الزهرة صورتها على سطح مياه المستنقع المخضوضرة الراكدة ، فارتجفت ، إذا هالها مارأت من إنوا عودها ، وزحف الذبول والاصفرار إلى بياضها الناصع ، فتملّك الزهرة خوف كبير، ورهبة لاحدّلها ، إذ أدركت أن القادمات من أيامها بتن أقل من الرائحات ،

وأن سويعات العمر باتت معدودة ، وأن النهاية قد اقتربت منها بخطى واسعة .

ودّت الزهرة لو استطاعت القفز ، الجرى ، الطيران ، البكاء ، الصراخ ، ولم يكن ذلك لأنها تخشى الموت فقط ، إذ كانت مدركة أن الزهور ذوات أعمار قصيرة ، ولابد أن تموت لكن بعد أن تهب البهجة وتمنح السحر والجمال ، وهاهى انتظرت وانتظرت ، ولسوف تموت فى هذا المكان الفظيع ، ستموت ويضيع جمالها وينتهى ، وكأن شيئا لم يكن ، وكأن وجودها كله لم يكن ، وتصبح كمن لم يخلق ويتنفس وينمو ويعيش.

اعتصر الحزنُ الزهرة، وكاد يمزقها الأسى ، غير أن اليأس العارم بدأ يضعها على مشارف الأمل ، والقنوط المبين أخذ يدفعها إلى حد اليقين ، حتى باتت تشجع نفسها قائلة : اشتدى يأزمة تنفرجى، وراحت تتساءل بدهشة : هل تكلف فراشة أو نحلة نفسها بالارتحال إلى هذا المكان النكد ، وهل يأتى إنسان أو كائن من كان للحياة فى عالم المستنقع الموحش المعزول؟، ومن ذا الذى يفكر بالمجىء لأجل زهرة ضائعة تعاشر الطحالب والصراصير ، وحشائش المستنقع السخيفة ؟ .

غير أن الزهرة التى كانت مصرة على أن تكون مثلما يجب أن يكون الزهر حتى النهاية ، قالت لروحها : أبداً ، لن أنتهى فى عالم المجهول ، وأغيب عن الدنيا كأن لم أكن ، بل سأبيت ليلتى القادمة والتى استشعر أنها ستكون الأخيرة لى فى الحياة ، وأنا أعصر نفسى ، وأضوع عطرى الأخاذ الرقيق ، حتى أغطى على رائحة المستنقع ، وينتشر أريجى ، بعيداً ... بعيداً مع النسيم والريح ، حتى يصل إلى موضع عاشق للزهر، أو محب للجمال . ـ

بدأ المساء فى الهبوط بطيئاً وئيداً فى البداية ، لكنه سرعان ما سارع خطاه ، حتى غطى بسواده المستنقع تماماً ، ولم تعد تظهر غير نجمات بديعات تتلألأ بذهبها المبهر فى الصفحة السماوية الزرقاء ، فتطلعت إليها

الزهرة مبتهجة ، وراحت تعصر نفسها ، وتنفث عطرها الرقيق القوى، والذى صنعته بجهد شديد ، رغم تشربها لمياه المستنقع العفنة الكريهة الرائحة .

سهرت الزهرة ليلتها ، لاتتوانى عن عصر روحها ونشر عبيرها ، تأتنس بذهب السماء ، ووجه القمر الفضى ، الذى أطل عليها بنوره ، فزاد حماسها للعمل، ومنحها يقيناً بأن لاغياب للأمل مع كل ماتبذله من جهد وعمل ، وكان عطرها ينتشر أكثر فأكثر كلما مر الوقت، ويغطى على رائحة المستنقع الفظيعة ، وسرعان ماغطى ذلك العطر على كل رائحة أخرى كانت فى المكان، بل وحمله النسيم الليلى الرطب معه بعيداً ، فى الفضاء إلى كل مكان.

بدا الليل ، على وشك الانقضاء ، واستعد الفجر للبزوغ ، والزهرة لاتكل أو تمل من عملها ، تقاوم الفناء ، وتصارع الموت ، حتى عصرت نفسها عصراً ، ونفثت كل مايحمله جسدها الرقيق من عطر ، ولما لم تقو على المزيد ارتمت على غصنها وحيدة ، شاحبة ، وبينما هى تغيب شيئاً فشيئاً ، تجتاز البرزخ الواصل بين الحياة والموت تناهى إليها شدو لقلق جميل ، كان يعبر السماء مسرعاً فى جولته الليلية الأخيرة قبل انطفاء النجمات وغياب القمر ، وبينما هو يمر فوق المستنقع ويغنى ، شعر بنشوة ومرح وصدح شادياً :

ماأروعها رائحة ، وما أبهج عطر هذا المكان ، لابد أن تكون زهوره رائعة ، وأشجاره يانعة ، وبينما كانت الزهرة تدخل ديوان الموت ، كان اللقلق السعيد قد نوى أن يأتى بوليفته ، ليبنى عشاً صغيراً، ويعيش فى هذا المكان .

الفهـــرس

صدر للكاتبة

- زينات فى جنازة الرئيس (قصص قصيرة) - القاهرة/ ١٩٨٦.
- مقام عطية (رواية قصيرة وقصص) - دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع - القاهرة/ ١٩٨٦.
- عن الروح التى سرقت تدريجيا (قصص قصيرة) - مصرية للنشر والتوزيع - القاهرة / ١٩٨٩.
- العربة الذهبية لاتصعد إلى السماء (رواية) سينا للنشر - القاهرة/ ١٩٩١.

صدر حديثا

(١) أمريكا والسعودية (تكامل الحاضر .. تنافر المستقبل)

تأليف/ ريتشارد بريس - ترجمة / سعد هجرس

(٢) المملكة السعودية وظلال القدس

تأليف / حسن أبو طالب

(٣) الامام الشافعي وتأسيس الأيديولوچية الوسطية

تأليف/ د. نصر حامد أبو زيد

(٤) أصول الشريعة

تأليف/ المستشار محمد سعيد العشماوى

(٥)فتح أمريكا

تأليف/ تزڤيتان تودوروف - ترجمة/ بشير السباعى

تقديم / فريال غزول

(٦) التنمية البشرية فى الوطن العربى

تأليف د. حامد عمار

(٧)معركة حافظ والمازنى

الأوراق الكاملة (١٩١٥ - ١٩٤٨)

تأليف د. مدحت الجيار

سلسلة عرب وإسرائيليون

(١) المؤسسة العسكرية الإسرائيلية

تأليف / نادية رفعت - عمرو حمودة

(٢) المسرح بين العرب وإسرائيل فى الفترة من ١٩٦٧ - ١٩٧٣

تأليف/ د. سامح مهران

٩١ / ٩٢٩٦

I. S. B. N: 977 - 5140 - 18 - 8

عرب ـ دار الطباعة المتميزة ت : ٢٩٩٣٥٤٢

عجين الفلاحة

في هذه المجموعة تمعن سلوى بكر في تسليط
قلمها اللاذع الساخر على الواقع الذي نعيشه
بتناقضاته الغرائبية التي تتزايد
يوماً إثر يوم، فتصدم وعينا ليتوقف
أمام أمور وأحداث مرت عليها أسماعنا
وأبصارنا دون أن نتوقف عندها. لأن
زخمها وتلاحقها جعلانا نعتادها وكأنها
أمور طبيعية.

لغة حارة متدفقة، وأسلوب سهل جذا
وشكل فني متميز، تتناغم جميعاً مع المو
داعية إيانا إلى التوقف أمام المتغير
والرياح التي تعبث بنا وتقلب كيانن

